تُوستالا

العنوان: **توستالا** (قصص)
المؤلف: **عبدالهادي سعدون**

الطبعة الأولى 2014
رقم الإيداع
2014 /17024
ISBN: 977-5634-22-3

الغلاف: الفنان خالد كاكي
إشراف:
د. طلعت شاهين

سنابل للكتاب
SANABEL
Editorial Hispano-Egipcia
www.sanabil.net
sanabooks@hotmail.com
5 شارع صبري أبو علم- باب اللوق- القاهرة
تليفون: 56 56 2393 20+

عبدالهادي سعدون

تُوستالا

قصص

" سأله وهو يراقب طقطقة الجمر في الموقد:

. لماذا يسمونك توستالا؟

تنفس (الشامان) طويلا ولم يجب قبل أن يدخن من غليونه الخشبي.

. لأنني حكواتي أسرد القصص كما يحلو لي، أسمعها عن آخرين أو ابتكرها، الأهم في هذا كله، أنني أتلاعب بها بما أشاء، أضيف لها من هنا وأحذف من هناك، حر باختياراتي ولا أحد يمكنه أن ينازعني مكاني، لأن حكاياتي لا تشبه حكايات الآخرين، ولا تشبه حكاياتي نفسها التي سأسردها يوم غد... التوستالا بلغة قبيلتي معناه الحكواتي الحُر.

. وهل قلت كل الحكايات التي بحوزتك أم بقي منها ما ستسرده علينا؟

. الحكايات لا تنضب . قال توستالا . الحكايات تتجدد في كل أمسية.

. وإذاً...؟

سرح التوستالا طويلا قبل أن يفتح فمه ليقول: أنصتوا لي.... "

(من كتاب حكايات الهنود الحمر)

" يا صديقي سانشو،
كل شيء ممكن في هذه الحياة، إذ لا فرق بين الخيال والحقيقة "

ثربانتس (رواية دون كيشوت)

" أنا لست سوى شخص من صنع كتبي"

خورخي لويس بورخيس

بلد متنقل

احتفظت برواية كتبتها منذ فترة طويلة ولم أكملها لأسباب عديدة لا أتذكرها الآن أو على الأقل لا تعنيكم أسبابها، أسميتها "بلد متنقل". ليس فيها شيء خارق أو شخصية لا مثيل لها، فقد كتبتها في شهر واحد وأنا في حمى نزيف دموي في الأنف يتوقف لساعات ليعاود جريانه من جديد. بالطبع لا يمكنني إحالة السبب بعدم إكمال الرواية لنزيف الأنف المفاجئ، فأحدنا يكتب باليد أو ينقر على حروف الكمبيوتر باليد كذلك، ولكنني لاستخدم هذه الحيلة بمثابة مؤثر على الرأس الذي لا يستطيع التفكير بشيئين في آن واحد، وحينها كنت مشغولاً بطريقة لإيقاف النزف المرعب، ولما لم أفلح توقفت عن كتابة الرواية، فتوقف النزيف. أعدتُ المحاولة فعاودني نزيفي، فوجدت من غير المجدي الاستمرار بكتابتها، وأقنعت نفسي بذلك.

ولكنني بعد ذلك ابتكرت متعة الحديث عن الرواية غير المكتملة، أضيف لها هنا وانقص لها من هناك، أحيانا أتطاول على ما يصلني من أفكار جديدة لقراءاتي روايات أو كتب تمنيتها لنفسي فأدسها في متن الرواية بمثابة فكرتي وأسلوبي وشخصياتي. كما لم أفتر عن سرد وقائعها على الجميع، مثلما أفعل الآن، لعلها فرصة لمداراة فشلي في إتمامها، أو للبحث عن سبب توقفي عن كتابتها مثلما عليه توقفي منذ فترة بعيدة عن كتابة أي شيء ولو مقال صحفي تافه لجريدة تافهة لا يهتم بقراءته أحد.

الحقيقة في كل هذه التفاصيل أن أنفي لم يعد للنزف أبداً، وطرأت عليه تحولات غريبة. فقد تصاغر إلى درجة مثالية ولم يعد ضخماً متطاولاً شبيهاً بالمنقار، والذي ما أن تلتقي بامرأة حتى تعرف من الوهلة الأولى بأنك عربي فتبتعد صاكة على أسنانها "عووووع". كما أن حاسة شمه اتسعت وقويت، وأنا الذي كنت أفتقد لها طوال حياتي. ليس في الأمر حيلة ولا سبب معين، فهذا وضعي ووضع أنفي، ومع ذلك فهذه قصة أخرى ليس لها علاقة بروايتي الناقصة التي أكلمك عنها (للذين يشككون بوجود الرواية فليراجعوا المخطوطة في المكتبة العربية في مدريد تحت رقم: Manuscrito/País Portátil 138).

روايتي غير المكتملة (بلد متنقل) أسرد فيها وقائع شاب ترك بلده وهي تجهز نفسها لحرب جديدة. ولكنه في خوفه الدائم لا يرغب حتى في فتح تواصل مع أهله. يمضي أيامه وكأنه سائر في نومه لا ينوي على شيء سوى متعة الانتظار الطويل بلا أمل. أثناء تجواله في أحد الأسواق الشعبية يتفاجأ بأحد الغجر ينادي عليه ويدعوه للدخول في دكانه. كان الدكان بمثابة إسطبل حقيقي هجرته الخيول، في وسطه طاولة تضم علب عديدة بألوان وأحجام مختلفة. يختار له من بينها صندوقاً أخضر بلا أية علامة خاصة، وعندما يندهش من الدعوة والصندوق، يخبره الغجري بأنها حاجته التي جاء من أجلها، ويضيف: " لا تستغرب يا أبن العم، فكلنا لنا رغبات لا نبوح بها، ولكنها تكاد تعلن عن نفسها ما أن نقترب منها. هذه هي هديتك افعل بها ما تشاء". لا يدعه الغجري الذي يناديه بابن العم أن يرفض الهدية أو أن يتساءل عن تفاصيل كل هذه اللعبة، فظل يحدثه عن معاناته مع الزبائن الملولين وسط صراخ الباعة الآخرين وعياط أطفاله ونعيب زوجته التي جرته أخيراً من ياقة قميصه ليأتي ويساعدها بتهوية غرف الإسطبل لأن أبناً لهما قد شمط بثيابه وزكم الأنوف برائحته.

لأن الشاب قد أصبح أمام حقيقة حاجته التي يعرفها الغجري أفضل منه. كما أخبره بذلك في الصفحة 20 من الرواية، والصفحة بحجم ورقة فولسكوب قياس 4 دي . يقرر حملها والابتعاد عن إسطبل أبن العم قبل أن تجتاحه رَوائح أخرى غير معرفة. في شقته وسط المدينة يجازف ويفتح العلبة ليعرف ما بها. أحيانٍ كثيرة نتصرف عكس ما نرغب، ربما هو الفضول أو الرغبة الحقيقية التي لا نقر بها، أغلب المرات بناء على ما يخططه الكاتب بطبيعة الحال. إزاء دهشته، يجد نفسه أمام هاتف متنقل (منكم من يسميه موبايل، خلوي أو محمول إلى آخر المسميات المبتكرة التي تجتاحنا بفضل اتساع الخيال وفقر اللغة بإيجاد البديل المناسب). مع الهاتف كتيب تعليمات عن كيفية تشغيله مع تحذير بسيط يعلنك المسؤول الوحيد عنه بعد ذلك وأن لا مجال للتراجع بعد الموافقة. الهاتف كما يعرف الجميع (واللعنة على التكنولوجيا المتطورة) ينقلك برمشة عين للوصول إلى أي بلد ترغبه. هاتف الغجري له خط وحيد وصوت بمثابة مطقة ناشفة ولكن متطاولة، حزره بطل الرواية ما أن نطق أحدهم من جهة ما (تفضل أخي. معك بغداد!).

لعل من السذاجة وصف تفاصيل فصول الرواية ومعاناة البطل (فكما قلت لمن له رغبة متابعة فصول الرواية وتطورها، فما عليه سوى استعارتها من المكتبة) لأنه بعد اكتشاف رنة الهاتف لم يعد يهنأ بنوم أو وقت فراغ أو حتى ولو إستراحة في أي مقهى أو زاوية من زوايا المدينة. سيعرف أن الهاتف لا ينغلق أو يخنس كما أن لا زر له القدرة السحرية بإيقاف الآخرين من الحديث الطويل الذي ستضج به شقته لينتقل أثره للبناية والشوارع المجاورة، فما كان من الجيران إلا أن تفرقوا وغادروا الحي من ضجيج لا يعرفون له سبباً.

في صباح يوم آخر وهو جالس عند زاوية مقهى (من المفترض أن يكون فصلاً جديداً، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنني لم أتوقف عند فصل إغواء ابنة الغجري الملتهبة لصاحبنا) سيقترب منه شخص يبدو غريباً عن المدينة يطلب منه

بلهجة واثقة وإن بدت له مبهمة بأن يساعده بحمل أغراضه فالجميع في الانتظار. قبل أن يصل شقته هارباً من الحشود ناعسة الوجوه، سيجد أكثر من واحد في انتظاره. عندما يحاول البحث عن الهاتف سيعثر على الإجابة: الآخرون انتقلوا عبر فوهة الهاتف من بغداد إلى مدريد. في البدء الأحجار الصغيرة، ثم الثياب فالأصابع فالشعر فالوجوه المعروفة والأجساد والأغراض، ولم ينسوا بالطبع الذكريات الثقيلة، اللزجة، التي خرجت بما يشبه الطلق لتنفجر وتتمدد ماسحة بيد نزقة زوايا المدينة.

بما يشبه الهرب أو الخوف أو مجرد الابتعاد عن كل ما يحدث من تغييرات في مدريد، والتي بدأ ناسها وبناياتها تذكره بما تركه خلفه منذ سنين، فكان أن خطف الهاتف وركض ليعيده للغجري. بحث عنه في دكاكين السوق ولم يجده. حاول التخلص من الهاتف بلا جدوى، بيعه، تحطيمه أو أي لعبة فنية من تلك التي نفكر فيها في أية قصة عندما تعيينا الحلول الواقعية عن أيجاد بديل، ولأنني تعرضت قبلها بأيام (إثناء كتابتي للرواية) لسرقة هاتفي الشخصي من جيب الجاكيت في محطة مترو الأنفاق، فكرت أنه حل مناسب لمأزق بطل الرواية، وهو أن يضيع الهاتف بوسيلة مشابهة. فكان أن سرقه غجري آخر (في حالتي سرقه مغربي دون أن يرمش له جفن) لم يلمح منه سوى خصلة جديلته المترجرجة وهو يهرب.

قبل أن أتوقف عن إكمال فصول الرواية بسبب نزيف أنفي، كان البطل قد وصل لأن يجد نفسه من جديد في بغداد بشوارعها وناسها وقنوطها الذي لا يشبهه حزن آخر في العالم. لقد انتقل عالمه إلى مدريد، ولم يعد أمامه من حل سوى أيجاد وسيلة للهرب مجدداً، فتركته يبحث في الأسواق عن جواز سفر مزيف يشتريه ليهرب عن طريق الشمال لأي بلد يقبل به لاجئاً.

توقفي عن الكتابة لا يدعني أتذكر ما خططت له كنهاية للرواية، ولم تعد تهمني طالما أصبحت من أشيائي الماضية، كما لا أفكر حقاً بالعودة لمراجعة مخطوطتها للشروع بكتابة ما ينقصها. ليس لي قدرة خارقة على رتق ما لم أستطع خياطته، فالحلول السحرية ليست من قدراتي الشخصية، على الأقل في الكتابة. ولذا عليك تقبلها كما أسردها لك.

الشيء الوحيد الذي أستطيع إضافته هنا هو أنني ومنذ فترة بدأت تنتابني تغيرات عديدة لا أجد لها تفسيراً. طبيبي الخاص بقي منشغلاً بحكاية نزيف الأنف الذي توقف بلا سبب . وتحولاته الجمالية، عن سماع ما يصادفني. ولكن طبيبي ليس الوحيد في هذا، خطيبتي تركتني تظن بي بداية جنون أو حيلة مني للهرب أو لأنني لم أعد قادراً على تهييج جمر تنورها. صاحب العمل تعذر بالربح القليل ليطردني لأصبح رقماً إضافيا في قائمة العاطلين. بينما أصدقائي القليليون في المدينة لم يعودوا راغبين برؤيتي في كل مرة وأنا أحدثهم عما أصادفه يومياً في تجوالي في مدريد. ذلك أنني بدأت أرى وجوهاً تركتها منذ زمن طويل في بغداد، مقاهي تغيرت واجهاتها وشوارع انمحت أسماؤها اللاتينية لتتسمى بأسماء عربية أعرفها عن ظهر قلب.

في المرة الأخيرة وأنا وسط بوابة الشمس في مدريد بحثاً عن الشمس أو ما يشبهها، ما أن رمشت بعيني طرداً للغبار، مثلاً . وفتحتهما ثانية، حتى رأيت واجهة البلدية تتغير معالمها وتختفي ألوانها وأعلامها وزخرفتها الهندسية التي تعود للقرن الثامن عشر وتحل محلها ما يشبه طاولة حجرية عملاقة كتب تحتها على قطعة من الحديد: نصب الحرية.

قبل أن أنهض لأتأكد من صدق ما رأيت أو لمواجهة أشباحي المتكاثرة كما يسميها أصحابي، تقدم مني شخص يشبه جواد سليم، نحات نصب الحرية، بلحيته من القطن الأبيض المنقط ليسألني أن رأيت من سرق قطعة منها. سألته: أية

قطعة. قال: وذرة الأمل. ولأنني لم أستطع إجابته بدقة تركني ليسأل آخرين، بينما كنت أراقب الجنود تحت النصب يدحرجون حجراً ضخماً ويتركونه في منتصف الساحة ليأتي بعد حين سكير ويجلس عليه بمثابة كرسي (لقطة سينمائية محبكة كنت قد رأيتها أو قرأتها أو قصها على أحدهم سابقاً) فيزوع أحشائه في علبة تنك مزنجرة ثم يتجشأ بصوت عالٍ كأنه منبه سيارة لا مجال لتفادي سرعتها حتى لو أغمضت عينيك. كما فعلت لحظتها . وكأنها المرة الأخيرة التي تجرب فيها لسعة الحياة.

نصيحة وتنشتاين

منذ أن قرأت ما كتبه ويتنشتاين قبل أيام في مقال بمجلة إسبانية وأنا فرح لأنه حل لي إشكالياتي الأخيرة مع الكتابة. الحقيقة يجب القول إن إشكالياتي تعود لأكثر من أربع سنوات (إذا تناسينا سنتان إضافيتان ركزت فيهما على كتابة قصيدة طويلة عن الخوف، لم أعد لقراءتها ولم أنشرها ولا أعتقد أنني سأعود لذكرها في يوم ما) ذلك أنني لم أفلح في إنهاء ما أكتب، أو على الأقل لم أكتب شيئاً مهماً، أي من تلك النصوص التي يريحنا تذكرها عندما لا نكتب شيئاً حقيقياً. يقول ويتنشتاين في جملته تلك: "إن كل ما نستطيع التفكير به، نستطيع التفكير به بوضوح، وكل ما نستطيع قوله نستطيع قوله بوضوح، لكن ليس كل ما نستطيع التفكير به نستطيع قوله". ويتنشتاين جاس على جرح تعطلي الذهني، ومنحني إقرارا أنني لم أصل لطريق مسدود بعد، عليه يقول في أسطر أخرى بعد حين أن من لا يستطيع كتابة نص طويل (هو يذكر الرواية تحديداً) وذلك لأنها تتطلب طاقة حياتية، حيوية وصلابة يفتقر لها أكثر من واحد، فالأفضل . وهذا رأي خبير أعجبني . فليلجأ للكتابة المتقطعة.

أمسكت منذ لحظتها بالحل السحري المسمى (كتابة متقطعة. مقطعية. انفصالية.. الخ)، لأنني لا أملك غيرها في الواقع. ففي دفاتري، وارشيفات الكمبيوتر، نصوص متجزأة، أفكار، حلول معالجة واهية، حوارات طويلة،

سيناريوهات حكائيه وغيرها الكثير، أقف إزائها حائراً، فما الحل لرتقها الواحدة بالأخرى، فلا أجد معيناً يعينني، حتى توصلت لحل ويتنشتاين السحري.

في الواقع أنا لست من الذين يقرأون المقالات عادة، ولا تفاصيل نصائح الكتاب لآخرين، ذلك إن أغلبها بالنسبة لي مغرضة، بل إنها مليئة بكذب مفضوح مثل تلك التي تبتدئ بـ "لا أعلم متى كان ذلك، ولكن للوهلة الأولى، خطرت لي فكرة النص عندما تذكرت ما يمكن أن يحدث لي وأنا طفل صغير، بدلاً من السقوط من عربة مسرعة، شاهدت أبي يقع صريعاً تحت عجلات عربة يقودها حصان هائج، فبرقت لحظتها ما يمكن أن يساعدني بعدها بأعوام على صياغة فكرة الرواية الأساسية...الخ " وهي على فكرة لكاتب تعجبني رواياته ولا أطيق تصريحاته. ولكنني قبل أيام، الأفضل أن أقول إنه كان يوم أحد، كنت قد اشتريت عدد جريدة البايبس الأسبوعي قبل دخولي مترو الأنفاق. كنت في طريقي لملاقاة صديقي الروائي محسن الرملي في محطة معينة اتفقنا عليها، كي يقلنا القطار نفسه حتى المطار لاستقبال علي بدر، روائي عراقي آخر، القادم من عمان لألقاء محاضرة في أشبيلية، وكان قد أتصل قبلها بيوم يعلن قدومه ورغبته رؤيتنا في المطار لأنه سيتجه مباشرة لأشبيلية (قلت له في الهاتف وكأننا نعرف بعضنا منذ سنين: عيني علاوي راح نكون بانتظارك، لا تقلق!).

في قطار المترو بدأت قراءة الملحق وانتهيت من تصفحه حال وصولنا المطار برحلة استغرقت ربع ساعة. كنت في حِلٍ من الحديث مع محسن، فقد كانت شفتاه متورمتان نتيجة قرصة بعوضة مجاري سامة كما شخصها الطبيب. الاستغراب الوحيد الذي بدر مني، هو أنني لم أر أو أعثر أو أسمع بإسباني قد قرصته بعوضة، ففي كل البلد لم أر بعوضة واحدة ولا أثر ما يدل عليها. على أية حال لم أستطع مناقشة ذلك مع محسن، فسيكون بلا فائدة، وسنكون أشبه بزوج وزوجة، هي تتحدث والزوج يهز برأسه. من هنا، تركت الصحيفة بيد محسن

وتصفحت الملحق، هناك عثرت على إجابة ويتنشتاين في مقال كتبه عنه روائي آخر هو الأسباني بيلا ماتاس، صاحب الرواية المدهشة: بارتلبي وشركاؤه. المقال يدور عنه، عن كتابه الأخير المترجم للأسبانية، وعن غرائبياته في التأكيد على أن الكلمات قد بدأت تهجرنا، وأن بهذا التأكيد قد قيل كل شيء، في إشارة لجملة بيكيت المكررة دائماً.

المهم أنني كنت هائماً بتسجيل تلك الجملة المنقذة، وقررت تدوينها في دفتر ملاحظات، وشغلت ذهني دقائق انتظارنا لوصول علي بدر، عندها أحسست بثقل كبير ينزاح عن كاهلي، وشعرت أنني لا بد أن أعود اليوم نفسه ليلاً للكتابة المتقطعة، حتى أرى اكتمالها المفاجئ بلا أدنى تعب ولا هم.

لكنني في الحقيقة لم أعد للكتابة تلك الليلة كما دلت عليه لهفتي في الجملة السابقة، ولا في الليالي التالية.

عدت للكتابة بعد شهرين تامين من التمرن. هنا يجب أن أشطب كلمة (كتابة) وأبحث لها عن مصطلح ومفردة أخرى، فالواقع إن تجربتي لم يكن لها علاقة بالكتابة بشيء، مثلما لم يكن لي تجربة سابقة كذلك. فيمكن أن نقول ببساطة (عملية تسجيل الرواية). وحتى لا تصابوا بدهشة واستغراب. بعضكم بالطبع سيهز شعفة رأسه . فلأعد إلى حيث تركتموني على قدم وساق عند البوابة رقم واحد في انتظار إطلالة علي بدر من وراء حاجز الزجاج المظلل. كنت وقتها، بينما أنا في هيجان إعادة تكرار جملة وتنشتاين، عين عند الباب وعين أخرى تتلفت لتفقد محسن غافياً عند زاوية كرسي، لا أرى منه غير شفة متورمة تبدو كلطخة مضخمة في وجه في لوحة للرسام بيكون.

هل من المفيد القول إن علي بدر قد وصل متأخراً ساعة ونصف الساعة، أقصد وصول طائرته، وبين القبلات والتحايا والاحتضان، لم يهدأ علي بعدها من

الحديث المتواصل عن كل شيء. ونحن نتمشى، نجلس في كافتريا المطار، نخرج، نوصله لمحطة القطار، وحديثه متشعب، متفرق ما أن يترك محطة وصل نهايتها حتى يتحول لمسلك آخر. كان قد حزر نوايانا الدفينة برغبة معرفة كل شيء عن البلاد، عن أسماء نتشوق لنرى أين مضى بها الدهر، وجملة الهذر المتكرر عن الرغبة والشوق والمنفى والسنين الطوال المترفقة بنا. تصوروا أن محسن استطاع تلك الساعات من لقائنا (المطاري) مع علي بدر أن يهمس بجملتين خطيرتين، ظننتهما خرجتا من جهة غير معلومة، أستلهما كسحب خيط عملية قيصرية، هما: كيف تركت العراق؟ وهل جلبت لنا صحف بغدادية؟، مع ما يشبه ابتسامة مثل شق جرح عميق. لم يتأخر علي بالإجابة، فقال لا عن السؤالين: "لأنني جئت من الأردن وليس بغداد"، ولم ينتظر ليرى أن كان محسن سيقدر على التعقيب أو النطق بسؤال آخر، فانبرى يكمل قصة ذلك المفكر العراقي الشاب الذي رافقه أمسية قصف بغدادية يسأله حائراً: ترى برأيك ما هي الطروحات الجديدة اليوم في فكر فوكو!؛ يقول علي، بينما لم يكن مني سوى لطم رأسي لأنني كنت منشغلاً بالفرار وقتها من أن تصلني أطلاقة أو صلية مدفعية أو خرطة قنبلة عنقودية. "تصوروا هذا البطران منشغل بفوكو، بينما كنا نأكل الخراء في عز القصف والموت المجاني"، ثم مشيراً للصلع البارز في الهامة: "هل ترون بربكم سبباً وجيهاً لفقدانه المبكر أكثر بداهة مما رويته لكم؟!". قرر بعدها أن نجلس من جديد، هذه المرة، في صالة انتظار القطار الذي سيوصله إلى أشبيلية بعد ساعة واحدة.

حتى لا أكرر أنني كنت منشرحاً بانطلاقة علي بدر وتجاذبنا الأحاديث كأننا ولدنا في بيت واحد، أريد أن أقول أنني وبسبب من إلحاح جملة ويتنشتاين على ذهني لم يبق في مخيلتي عن علي بدر. متجاهلاً للحظة حكاية المفكر البغدادي الخارقة للعادة كحكاياتنا نحن العراقيون. سوى علامتين، إحداهما حقيبته الطولانية الثقيلة التي تحتل ظهره العريض، لم يضعها على الأرض سوى لمرة واحدة عندما

أخرج كتبه التي أهدانا نسخاً منها مع علبة بقلاوة مغلفة اشتراها من ساحة الحسين في عمان، والشيء الثاني قلادة من خيط نايلون متعلق ما بين رقبته وجيب قمصلته الذي يتدلى منها لاقطان صوتيان كأذنين ممطوطتين وزائدتين عن الحاجة.

بدأت دائخاً مثل جاهل في لعبة جديدة وأنا أتمعن بخيوط علي المتحركة مع تقلصات جسده، فما كان منه إلا أن توقف وسألني: ماذا دهاك، ألا تعرف ما هذه؟

رفعت حاجبي دهشة وفكرت بديسك مضغوط أو كاميرا. قال لي: لا ما حزرت. هي أفضل من كل ذلك، هذا سر إبداعي أخشى أن أفضحه أمامكم!

لم يتطلب فضح السر سوى لحظات هو زمن فركه لأرنبة أنفه، فكان أن قال: لكما أستطيع قوله، في كل الوقت الذي أمضيه متنقلاً بين بلد وآخر، ولا أجد وقتاً ولا كمبيوتراً للكتابة، أسجلها صوتياً على هذا الجهاز الصغير المخفي في الجيب، أحيانا يطول التسجيل فتخرج منه نصوص ومقالات جاهزة وأشياء أخرى أجهلها حقاً ولكن لا بد أن تنفع في نص ما. و.. بهذا لا أضيع الوقت في الانتظار الممل في الصالات والمطارات.

قبل أن يدخل الحاجز الأخير لصعود القطار، كان قد طلب الحديث مع محسن على انفراد، همس في أذنه بكلمات لم أتميز منها ولا حرف واحد، كما أنني لم أستطع تخمين ذلك من رد فعل محسن، فقد كان وجهه أكثر ضبابية من ساعة الصباح.

عندما عدت للبيت بعد توديع علي بدر وترك محسن عند بوابة بيته، لم يكن في مخيلتي سوى صورة ذلك الجهاز، فقررت أن ألف رأسي وأنام مفكراً في كيفية الحصول على جهاز مثله في اليوم التالي، فقد جاء الحل في وقته ليساعدني على إتمام ما نويت عليه من الكتابة المتقطعة على ذمة جملة وتنشتاين تلك، التي سجلتها في دفتري العتيد، ولم أمل من تكرارها كل لحظة.

لا بد أنكم قد خمنتم الآن أنني ومنذ بداية الحكاية لم أكتب حرفاً من هذه القصة، فالحقيقة أنها بالكامل مسجلة على هذا الجهاز المسمى (أم بي 3) علامة (أوندا ماكس) المحمول باليد أو في جيب القميص أو متمايلاً كأية ميدالية ثمينة في الرقبة. من هنا كانت تجهيزاتي للحصول عليه شديدة التعقيد، فميزانية الإعانة الاجتماعية التي أتلقاها من البلدية كأي عاطل عن العمل لا تغطي طموحاتي الروائية، من هنا بدأت العمل (بالأسود حسب مصطلحات سوق الجملة) لستة عشر ساعة يومياً حتى أوفر مبلغاً لا بأس به لشراء جهاز يكفيني العمر كله، وكفيل بإنقاذ كل أعمالي الروائية القادمة، تلك التي سجلت ملاحظات عنها، التي فكرت بها ولم أنجزها، أو تلك التي لم يحن بعد الوقت للتفكير بها. ليس هذا وحسب، بل تطلب مني العمل لضمان مبلغ نشرها فيما بعد أو على الأقل نقلها على الكمبيوتر حال الانتهاء من تسجيلها، وكأي كاتب شديد الثقة بالنفس ولا وقت لديه لضياعه سوى التفكير بأعماله، ادخرت جزءاً من المال لدفعه لشخص كي يقوم بتفريغ الأرشيفات الصوتية، فمهمتي انتهت بتسجيلها وانتظار رؤية النص مكتوباً على الورق.

قررت بحل سحري استدانة المبلغ من تاجر عراقي على شرط العمل عنده لمدة شهر وبضعة أيام، والغرض هو استغلال تلك الأيام لتسجيل ما أريد، حتى وأنا أعمل. في النهاية هربت من العمل ما أن أتممت شهراً واحداً، وبقي التاجر يلاحقني ويوصي عليّ الآخرين ليطالبني بالأيام المتبقية، ولكن هذه الأشياء لا أريد أن أشغل بالكم بها، فهي تحدث وحدثت بما يكفي لرصدها والتوثيق لها في كتاب مستقل.

أثناء تلك الأيام فكرت بمعاودة كتابة قصة طويلة أو رواية قصيرة بتوصيفات أخرى، كنت قد فكرت بها مراراً وهي: سفر في غرفة. والسبب يعود لفكرتها

الرئيسية المتمثلة بما يشبه كتابة يوميات متقطعة، وهي ما تؤكد قابليتي الكتابية التي توصلت لها حسب نصيحة وتنشتاين. بطل الحكاية ما أن يستيقظ من نومه، حتى يجد نفسه محاصراً بذبابة تلاحقه بأزيزها، مما يمنعه من الخروج ومواصلة حياته، فكان أن غافلها بحركة هروب مفاجئة وخدعها بأن تخلص منها بإخراجها من الغرفة. لكنها بقيت عند باب الغرفة المقفل تعلن حضورها وتهديدها بأزيزها الشبيه بمروحية طنانة. عندها وللوقت الطويل في سجن غرفته، لا يجد من وسيلة سوى استذكار ما مر به من حياة لا معنى لها، فيبتكر لنفسه رحلات وهمية قام بها، مزيج من رسائل وقراءات وتخيلات يظن بها ما له علاقة ببلدان ونساء وأماكن تعرَّف عليها بشكل جيد. النوم، الصيام، تحريك الجسد، الحاجة الشخصية الملحة كلها يقضيها بين الأركان الأربعة، إلى أن تصبح غرفته بمثابة عالم مصغر هو عالمه الحقيقي. ما أن ينتهي من كل ما اعتقد أنها حياته قد كتبت لتوثيقها لمن يريد قراءتها بعد موته، في تلك اللحظة السحرية مثل لحظات الأفلام المنتجة بعجالة واضحة، يكتشف أن الباب مفتوح منذ اليوم الأول لحبسه، وأن الذبابة لا أثر يدل عليها. الآن أتذكر أنني قد تركت كتابتها في فترة لاحقة لأن محسن الرملي. عندما كان باستطاعته الكلام بالطبع بشفتين سليمتين. قد ذكّرني بأن الحكاية نسخة مفبركة لفكرة كافكوية عن التحول والمسخ. لم اقتنع، ولكن بسبب كسلي العريق ليس إلا، كنت قد تركتها بلا إتمام.

أخيراً أستطيع القول إن عملية الكتابة الصوتية قد أتت بثمارها، فها هي ارشيفات 72 ساعة مسجلة بتنسيق دقيق ومكتمل.

كنت قد سمعت من آخرين بوجود امرأة تكتب النصوص على الكمبيوتر لقاء أجر مناسب، فطلبت هاتفها واتفقت معها على تفريغ روايتي الصوتية. اندهشت الشابة المغربية . لم أسألها عن أسمها بعد . مما أطلب ولكنها طمأنتني على أن ذلك ليس بمستحيل فهي تستخدم جهازاً مشابهاً لسماع الموسيقى، لكن أجرته

ستكون مختلفة عن كتابة النصوص الأخرى. وافقت وتركتها عندها على أن أستلمها بعد أسبوع. أحصيت ما بقي معي من نقود ووجدتها كافية لرحلة قصيرة إلى مدينة في جنوب أسبانيا، وهي فرصة لمصالحة صاحبتي الإسبانية التي هجرتها طوال شهرين أو أكثر لرغبتي بتخصيص الوقت لتسجيل روايتي. فكرت بأسبوع استرخاء رفقة الأسبانية والمناخ المعتدل، وصممت مع نفسي ألا أفكر بأي شيء حتى انتهاء الأسبوع.

لم أحلم بعطلة مريحة كهذه أبداً، لم أعمل فيها شيئاً غير الأكل والتفرج والأرجحة في الفراش لساعات.

عندما انتهت رحلتي وعدت للبيت وجدت أكثر من رسالة صوتية مسجلة في حاكي الهاتف لامرأة اسمها عيشة، لم تفعل غير أن تكرر جملة واحدة: أستاذ عبدالهادي، أنا عيشة، الرجاء الأتصال بي بسرعة، فقد حصلت مشكلة مع كتابك.

بخيال سفرتي المريحة، فكرت بكل الاحتمالات السيئة الممكنة سوى أن ارشيفات 72 ساعة لأيام طويلة من التفكير والمراجعة لا وجود لها إطلاقا. ضاعت بغمضة عين.

لم أترك لعنة إلا رميتها ولا حالة من الهياج والصراخ والعويل دون تجريب. كانت الشابة المغربية المدعوة عيشة قد أخبرتني بأن الأرشيفات الصوتية فارغة إلا من صوت طنين مستمر (يشبه طنين حشرة)، وهي متأكدة من أن المشكلة كانت إثناء التسجيل، ولا بد أن الجهاز خادع بشكل ما.

لم أصدق كلياً وأنا أستمع لها لأنني جربته أكثر من مرة قبل تسجيل روايتي (سفر في غرفة)، فمضيت بسبابي ولعناتي هذه المرة تنصب على علي بدر وابتكاراته الإلكترونية. قلت: اللعنة عليك يا علي بدر وعلى هذه المصيبة.

– من علي بدر هذا، وما علاقته بالرواية؟ سألت عيشة التي ما تزال على الخط.

سكت وجلست على الكرسي بلا أي تفكير معين سوى من ترديد اللعنات.

– اسمع يا أستاذ عبدالهادي، لتسمح لي، فقد حصل مع آخرين أن فقدوا كتباً بأكملها، لا عليك، لقد قرأت لك في الانترنيت نصوصاً جميلة أعجبتني جداً، ومتأكدة أنك تستطيع كتابة أفضل رواية. لا أعرف ماذا أقول، لأنني أشعر بالتقصير، رجاء لو تريد سماع الأرشيفات لتتأكد بنفسك فما زلت احتفظ بها. يمكنك المرور بأي وقت؟

– لا عليك يا آنسة عيشة، الوقت متأخر الآن، سأرى لاحقاً. لا عليك.

قد تكون نهاية محتملة للحكاية بأكملها عند هذا الحد، لكن الوضع تغير مع جملة عيشة التالية:

– لا أبداً يمكنك المجيء، أنا أسهر لوقت متأخر، ويسعدني أن تزورني الآن لو شئت، ليس عندي ما أضيفك به.. قنينة نبيذ أحمر من لاريوخا، يعجبك النبيذ؟!

للمرة الأولى أنتبه لصوت عيشة، رنة حبالها الصوتية، ونطقها لكلمة ريوخا بدلال غريب.

توقف لساني عن اللعن، وسمعت نفسي تقول: سآتي حالاً يا عيشة.. لن أتأخر.

شعرت أخيراً أن أحداً يدرك ما أريد الوصول إليه، شخص مثل عيشة، تعتقد أنني كاتب لا بأس به، لم تنعتني بالفشل، فقط تعتقد أنني جربت الطريق من باب خاطئ مثل أية بداية لا نحسن الامساك بخيطها، ثم حدثتني عن أنها تعرف من الوسائل الإلكترونية الجديدة ما يساعدني على إنجازها " أفضل من طريقتك التسجيلية " قالت لي، ثم أضافت " الكتابة المقطعية أفضل الحلول، عندما تأتي سأعيرك كتاب (الوسيلة الأخرى) لكاتب أسمه وتنشتاين، هو فيسلوف ومفكر أكثر منه روائي، لا أعرف إن كنت قد سمعت به وبنظريته ولكنك ستتفق مع وصفاته، سترى بنفسك، لا تتأخر".

في الطريق لملاقاة عيشة في بيتها، لم يخطر على بالي، وأسم علي بدر وهيئته لا تفارق خيالي، سوى الضحك بصوت عالٍ دون أن أهتم بنظرات الناس في الشارع، و أنا أردد: على عنادك يا علي بدر على الأقل سأغرق بأحضان عيشة (يا روح ديالي، باغي غير ندوي معها للمسحر) أفضل من بطل روايتك (صخب ونساء وكاتب مغمور) الذي لم يحظ لا بشقته ولا بقبلة من شفاه عيشة، وبالتالي هي تعرف وتنشتاين وقرأت له مثلي وهذا شيء خارق لا مجال للتفكير بطريقة تلاقي أفكار أفضل منها، فعاودني الحنين من جديد لتكرار جملته العتيدة مفكراً الآن وحسب بوجه عيشة وهي ترددها أمامي.

حكاية الرجل
الذي قصّ عليّ حكاية يعتقد أنها تهمني

زرت مرة بيت صديقين، كنت قد تعرّفت عليهما في تجمع تكريمي لا أذكر الآن حول أي شيء لطالما مناسبات التكريم شبيهة الواحدة بالأخرى. أحياناً أشك بأنني تعرفت عليهما في مناسبة تكريمية، ولكن يجب أن ترضى بما أقصّه عليك، لأنني لا أجد مخرجاً محكماً آخر غيره. في تلك المناسبة، ما أن عرفوا أنني عراقي حتى ألحوا علي بزيارتهم نهاية الأسبوع وأخبرني الزوج وزوجته (لم أسألهما عن أسميهما، أو أكون قد سألت ونسيت، طالما أن ذاكرتي تحتفظ بالهيئة أكثر من الأسماء؛ ألم يقل أحدهم أن الأسماء غباء، شبيه بغسل الأحجار المبتلة في الماء). لم أكن بالمرة مولعاً بتلبية الدعوات أو من هواتها، ولكنني لسبب أو آخر بقي في بالي نهاية جملة الدعوة وهما يكرران: "سترى كم هو مميز. نبيذ طاجكستان!".

التفكير الآن بعلاقتهما بطاجكستان، لا يمنحني أي تخمين معين (ثم من أين لي معرفة أين تقع طاجكستان؟)، ولكن كلمة نبيذ السحرية علقت برأسي مثل تعلق خيط بالبكرة، فقررت تتبعه.

ما أن وصلت بيتهما (شاليه، فيلا، قصر أو بيت ضخم أكثر قرباً له من كلمة بيت) حتى دخلت دون طرق الباب، لأنني وجدته مشرعاً. لم يستقبلني أحد، فقد كان هناك حشد هائل من الناس، تجمعات صاخبة، يتحدثون بينهم، يتصارخون أو يشربون من كؤوسهم فحسب على خلفية موسيقى تضارب طبول،

ظننتها أفريقية. فكرت بالإقتراب من طاولة المشروبات لعلي أجدهما، لم أعثر عليهما. تناولت كأس نبيذ وانتحيت جانباً أقصى الصالة، جلست في أريكة مريحة وشرعت بالتمتع بتذوق النبيذ. قبل أن أصل لمعرفة الطعم الغريب وتمييز نوعيته وكيفية صناعته، مفكراً باحتمالات متعددة . لطالما أصبحتُ خبيراً فيه منذ مدة طويلة . حتى سمعت صوتاً أجشاً يصدر عن رجل جلس بالطرف الآخر للأريكة وهو يعلق:

– أنت جئت من أجل النبيذ كالآخرين؟

نظرت باتجاهه ولم أحر جواباً، فالمسألة أنه تدخل في اللحظة التي بدأت فيها بمداورة النبيذ في فمي لتحسس تلك الرائحة المغرية للشراب.

– لا تقلق، أغلبنا جاء للسبب نفسه. قال الرجل الأشيب دون أن ينتظر اجابتي.

لكنته بدت لي من جنوب أسبانيا، ولكنه دون شك أسباني وليس أجنبياً مثلي ومثل آخرين حضروا حفل النبيذ هذا. مددت يدي ليده الممدودة وهو يقدم نفسه، قلت له أسمي المزيف، من أسماء عديدة مزيفة أستخدمها بمناسبة وغيرها.

– اذن أنت من طاجكستان.. أسماؤكم تعجبني ففيها رنة غريبة نفتقدها نحن الإسبان.

سألني بعدها عن النبيذ وكيفية عمله في بلدي (المخترع من قبله)، فشرحت له بزيف لا مثيل له عن طرق تحضيره في طاجكستان، واحلته لتذوق النبيذ في تلك اللحظة لتمييز ثلاثة أصناف من الفاكهة المختلطة في برميل المنشأ، والطعم المر في نهاية التذوق اثناء اندلاقه في البلعوم، يعود لبراميل الحفظ المصنوعة من خشب الأرز المشبع بالدم، دم أضاحي حيوانية ممزوجاً ببضع قطرات بشرية، التي غالباً ما تعود لفتيات عذراوات.

رأيته يبتسم بدهشة ويجلس بقربي حتى يكاد يمسني باكتافه، يغمض عينيه ويتمضمض بفمه، غرق بعدها في غيبوبة تامة لا تفرقه عن ميت سوى تعابير ارتياح علت وجه، كأنه بها أكتشف سر الأبدية.

للحظات نسيته واقتربت من الطاولة لملء كأسي مجدداً. ما أن عدت حتى رأيته مسترخياً بانتظاري.

– سر نبيذك لا مجال لأكتشافه دون تفسير.. أريد أن أشكرك لكشفك السر. قال بجدية تامة.

– النبيذ سر بحد ذاته، وما قلته يعرفه الجميع. كذبت

– لا.. لا تقلل من قيمة معلوماتك.. ولكن..

صمت ولم يكمل جملته. لم أعرف كيف أرد عليه.. فشربت كأسي الثانية.

– .. ولكن دعني أقول لك.. ما أريد أن أقصه عليك ليس بأهمية سر النبيذ، ولكنني لا أعرف غيرها.. سأهديك هذه الحكاية.

في مرات عديدة أكتشف أن كل الذين تعرفوا عليّ للمرة الأولى أرادوا قصّ حكايتهم، ولم أعرف سبب ذلك. فكرت بأنني ربما أكون أذناً سميعة بامتياز، ولكنني توصلت في النهاية إلأى أن لي وجه شخص انعزالي مفضوح، فيظن الآخرون باستحقاقي لحكاية تنتشلني من وحدتي. مشاركة غير مباشرة تطيل رمق حياتي الخاوية. في كل مرة . أيضاً. رفضت عروض الحكواتية، ولكن رفضي لم يجد نفعاً. في الواقع لم ينتظر أحدهم رأيي أو رغبتي بسماعه، فما أن ينطقوا بجملتهم، حتى يكونوا قد بدأوا السرد.. ومنهم بالطبع مشاركي بالنبيذ والأريكة المريحة.

(إستمع إذاً..) قالها ومرر لسانه على شفته العليا.. ثم حكى:

– .. في الواقع لست أسبانياً، لكن الجميع يظن ذلك، وفي كل مرة أعتقد بما يعتقدونه. جربت العديد من هذه الأسماء المنتحلة حتى صدقت أنني أسباني

بالفعل، ولصقت بي الأسماء أكثر من اسمي أو هويتي الحقيقية. أنا من جنسية أخرى (لا أجدك متحمساً لسؤالي عنها، فلننسها) وصلت وعائلتي عندما كنت ما أزال صغيراً، ولكنني لليوم أرفض أن أقول جنسيتي وأسمي الحقيقي. تنتابني الرغبة في بعض المناسبات بأن أسر جلسائي بذلك، وما أن أتخلص من الثقل حتى أخرج خاوياً، فقيراً لسبب ما، فأقع فريسة العزلة والأيام الطويلة بلا معين.. ما أن تعافيت للمرة الأخيرة من كشف سري حتى قررت المضي بلعبة انتحالي المعتادة.

كان قد مر عليّ وقت طويل يتلبسني أسمي وجنسيتي المنتحلة، ففكرت أن الوقت حان لكشفه لأقرب صيد.

كنت أجلس في أحدى مقاهي الشوارع الصيفية في وسط مدريد وأقترب مني شخص يسألني أن كنت أسمح له بالجلوس معي على نفس الطاولة.. قبل أن أعرف مرامه، قال مشيراً بيده:

– كما ترى فالمناضد مشغولة، ووجدت أنه من الممكن أن أجالسك.. هذا أن وافقت، وأعدك ألا أزعجك إطلاقاً!

وافقت دون تحمس، فلم يكن وجهه يوحي بأنه سيكون واحداً من معارف سري، ولكنني قبلت على مضض، معتقداً أنه لا مجال لرفض طلبه. في الواقع كان رجلاً ودوداً، متكلماً من أولئك الذين تشعر بأنك تعرفهم منذ وقت طويل. لهذا السبب أو لغيره بدأنا الحديث كأصدقاء قدامى.. دعني أوضح أمراً.. ففي الحقيقة، كان متعطشاً للحديث، ولا بد أنه قد وجد ضالته بشخصي، لهذا السبب وليس لغيره، بدأ يحدثني عن روعة الشمس في الصيف ولكنها ليست الشمس ذاتها في بلده. وقبل أن أسأله من أي بلد هو، قدم نفسه بكونه هارباً من العراق أوصلته قوارب المهربين من المغرب لأسبانيا، وبقي في البلد لأنه أكتشف في الشهر الأول أن ساحة بوابة الشمس وسط مدريد تذكره بالباب الشرقي وسط بغداد، فظل مداوماً فيها ولم يفكر بالبحث عن بلد أوربي آخر. كانت المرة الأولى التي التقي بها

بعراقي منذ سنين طوال، وكانت المرة الأولى التي بقيت فيها مشدوداً لكلام شخص لا أعرفه حق المعرفة. عندما طلب قهوة من النادل، استمع لنصيحتي باضافة قطرات من عرق الشينشون المحلي لقهوته، فأعجبته الفكرة وكرمني بأن دعاني لشرب قهوة على حسابه، فهززت رأسي بالموافقة. كان يتلذذ بشرب قهوته عندما نظر لي بتركيز وقال: "لأنك علمتني هذه الوصفة السحرية لشرب القهوة، لتسمح لي أن أحكي لك حكاية لم أحكها لآخر، أنت الأول بسماعها من فمي".

تصور مسألة أن تجالس شخص لا يعرفك ولا تعرفه، ويهديك بأريحية حكاية خاصة بك، فلا بد أنني لم أجب لحظتها وبقيت منصتاً لما سيجيء به كأي واحد منا عندما يقتله الفضول. ابتسم مغمض العينين وسرد ما أحكيه لك الآن، إذ قال:

– .. كنت طوال حياتي أخشى الموت.عرفت هيئته منذ اليوم الأول لولادتي. أهرب منه قبل أن يصل حدود مكاني. أغافله وأتلاعب به كي لا يصيدني، ونجوت منه كما ترى. لم يكن لي مهنة في بلدي غير الزوغان والهروب حتى أصبحت لصيقة بي، ويعرفني الناس من خلالها. لكن كما تعرف وأنت سيد العارفين، فالموت يجيء خلفنا بأردية وهيئات مختلفة، ما أن نكتشفها حتى يكون قد فكر بغيرها. لست شجاعاً صدقني لأنتصر على الموت، بل كنت أكثر عائلتي خوفاً ومحترساً من وصوله عتبة بابي، لذا كنت أسرع منه بالإختفاء. ولادة متعسرة وخروج للعالم بوجه مزرق. في طفولتي غرقت ورأيت الموت ينشر أسماله حولي، فتصارعت مع الموج وقررت الوصول للجرف، ولو تعرف لتعجبت إذ أنني لم أسبح بحياتي لمرة، ولكنني حينها تعلمت السباحة. ضربتني سيارة مسرعة في مراهقتي، وقبل أن تشرق ابتسامة الموت الملاحق لي، فكرت ألا أنام في غيبوبة، فبقيت صاحياً متحملاً الآلام وأنا أرى قدمي مسحوقة تماماً والناس تهرع لنقلي للمستشفى. في شبابي طردوني من الجامعة ولم يتركوا لي فرصة أخرى غير أن أكون جندياً في حرب ثمان سنوات متواصلة. شاركت في كل معاركها، رأيت الموت يحصد

أصدقاء لي بالألوف، يحرق مدناً بالكامل ويحيلها رماداً. كنت وقتها لا هدف لي غير مراوغة الطائرات والمدافع والرشاشات وهي تحاول تمزيق جسدي، فكنت أتقيها بخفة مهرولاً بينها، متفادياً رصاصها المنهمر، الذي أكل من جسدي اشلاء متفرقة، دون أن ينال مني كلياً.. لم أكن ساحراً، ولكنني فهمت أن مهمتي في الحياة، لم تكن مثل الآخرين، كان لي مهمة واحدة هي البقاء على قيد الحياة. قررت المواصلة ومباغتة الموت بالهرب، قبل أن يباغتني بشراسة عضاته. كان الأنتصار الأكبر لي على الموت، فقد أنتهت الحرب ولم يصرعني. تقاويت عليه وفكرت أنني لن أموت كما يرغب سارق اللذات ومفرق الجماعات، وتأكدت من جديد بأنني نجحت بمهمتي. لم تمر سوى أشهر حتى ساقوني جندياً في حرب أخرى. كنت واقفاً عند ساتر يحمينا إذا ما بقينا في الأسفل، ولكنني توصلت إلى أن الموت قد تركني حراً ولم يعد يجري ورائي. في تلك الساعة تماماً رأيته واقفاً عند الساتر المقابل، لم يتغير بشيء، الوجه نفسه متورداً والإبتسامة التي رأيت آخر مرة هي نفسها، كان متأهباً للقائي وكأنه يحضر لخشبة إعدامي.. قلت بصوت عالٍ، صارخاً بوجهه:

"ولا هذه المرة سأسمح لك بأن تقتنصني"، فأعطيته ظهري، ولم أتوقف عن الجري.

هربت مرة أخرى، محترساً من كل شيء، حتى فقدت أثره. أيام طويلة بلا توقف. هربي أوصلني أرضاً لم أرها بحياتي، فعرفت أنني قد تركت البلد، ولم يعد هناك من يتعقبني. جربت المشي للأمام بلا توقف، اجتزت جبالاً، ومررت بأراض بور، وعبرت بحاراً بقوارب متهالكة، انتحلت كل شيء وزيفت كل شيء حتى أسمي وهويتي، امتهنت ما لا يمكن تصوره، وصنعت ما لم أعرف أنني أستطيع صناعته.. لا تظن أنني أمر بسرعة على الأشياء المهمة في حياتي بعد فقدي لأثر الموت من خلفي.. أنا أعرف بأهميتها أكثر من الآخرين، ولكن معاودة تذكرها لا

فائدة منه هنا لطالما سردها أحدهم قبلي، منتحل مثلي ومهرها بإسمه على أنها قصصه وحكاياته في كتاب أظن أن أسمه (انتحالات عائلة وبعض من حيل ووصفات أخرى) فكما ترى أنه لا يحق لي تذكرها كحياة خاصة بي طالما ألتصقت بإسم وانتحال آخر، ليس مهماً بالضرورة أن نذكر كل شيء مر بنا، كما أن كل ما مر بي، لا بد أنه قد مر به غيري، فلماذا عليّ التفكير بأن قصص الكتاب قصصي حتى وإن كانت شبيهة تماماً بقصص حياتي التي سردتها لصاحب الكتاب وانتحلها له.. المهم أنني لا أريد تكرار القصص نفسها، على الرغم من أننا نكرر القصص ذاتها من موقع لآخر.

لذا فكرت حينها، بأنني قد انتصرت.

للمرة الأولى منذ سنين أشعر برغبة أن أستريح باغماض عيني ولو لساعة. كانت تلك ساعتي الأولى بالإسترخاء منذ ولادتي. استيقظت دون رعب، فقررت أن أعاود النوم إلى ما لانهاية.

ينام الواحد منا وهو لا يفكر متى يستيقظ، وأظنني شبيهاً بالجميع. استيقظت عندما رأيتني مستيقظاً وحسب، ولم أعد للتفكير بملاحقة الموت لي. منذ تلك اللحظة لم أعد أرى الموت. لم يعد يتبعني، ولم أشعر بخطواته ولا أحس بشراشيب ثوبه وهي تخط الأرض مقترباً بوجل وخفة كي يجثم على جسدي ولا أجد منفذاً أو فرصة لمقاومة بعد ذلك.. ها أنا أمامك بلحمي ودمي، لم أترك فرصة دون تجريب، ولم يترك الموت فرصه دون تجريب، لكنه فشل بملاحقته لي، بينما نجحت بمهمتي الوحيدة في الحياة: الهرب والنجاة... يمكنك أن تعتبرني الوحيد الذي لم يهزمه الموت...الآن أعيش وحسب بلا خوف من ملاحقته.انتهى كل شيء.. أنا حر!

عندما انتهى رفيق الطاولة من حكايته، لم يزل بعد مغمض العينين. لم يفتحهما لمرة اثناء حكيه وكأنه أراد أن يستذكرها كما هي بلا نقصان ولا تغيير.

اقتربت أكثر من الطاولة وهززته من كتفه. عاد لوضعه الأول ولكن بعينين هادئتين، لامعتين دون أثر لدمعة واحدة. كنت مستغرقاً بتفاصيل ما سرده لي، ولكني بدلاً من أن ينتابني الفرح والدهشة، كنت قد غرقت بحزن لم أعتده منذ زمن. طرقت على الطاولة بأصابعي وطلبت منه أن يقترب أكثر. انحنى تاركاً الكرسي للخلف، فتلاقى رأسانا وكأننا على وشك التناطح. فقلت له بصوت واهن ولكن واضح النبرة دون أن يفارقني الكدر المرتسم على الوجه:

– تقديراً لكرمك، فلتسمح لي أن أقص عليك شيئاً.

بحت له بسري في أذنه وخدانا ملتصقان الواحد بالآخر.

بقيت أنظر في وجهه لأرى أثر ما كشفته له. لم ينظر لي ما أن قلت جملتي الأخيرة، بقي مطرقاً ونظرته تواجه الأرض. قام بعدها، وضع نقود ما شربناه على الطاولة وتركني دون كلمة. أبتعد حتى زاوية الشارع وتوقف، لكن دون أن يلتفت ولو لمرة واحدة. أحسست أنه يفكر بكلماتي، الرأس مطرقة وأصابع يديه وحسب تتحرك بتشنج غريب لا تراه سوى لدى راقصي الفلامنكو. حدة وتصميم بتوجيهها. لم أستطع ترك نفسي دون مراقبته وهو يبتعد، ثم يتوقف عند زاوية الشارع، أسفل بناية تجارية. للحظات فكرت انه لم يعد يتنفس أو توقف عن تحسس ما يحيطه. كنت موجهاً بشدة لمراقبته وتقدير حركاته. لمحت خيط تغير بحركة أصابعه من التشنج للإرتياح وتركها تنفرج وتسقط كخرقة مبلولة، شبه زهرة عباد الشمس منكسة الرأس.

انتفض رأسه فجأة بحركة واحدة وأرتفع كلياً ليبقى مركزاً نظره للأعلى حتى أبعد نقطة من البناية.

كنت الشاهد الوحيد لما حصل، قد لا تصدقني، ولكن ليس المهم أن تصدق ما أقول، فهو ما حصل بلا أي تزويق ولا أية أضافة مني، كما أنه يمكنك أن تحذف من الآن فكرة الحظ أو القدر، فلست بالذين يؤمنون بذلك.. ما حصل لا

يحتمل مخرجاً آخر غير الذي أقول والذي رأيته لوحدي من كرسي المقهى كمشاهد شاشة كبيرة بلا قدرة على تغيير البرنامج ولا تجاهله. رأيته للمرة الأخيرة برأسه المنتصبة، ويتسارع يخالف حركاته المعتادة، يرفع يديه للأعلى لتكون بانتصاب رأسه وكأنه يشد السماء إليه.. دون أن يسمح لي الوقت بفهم وقفته، رأيت كيف تنفطر شرفة البناية بسياجها الخارجي لتقع بلا ضجة كبيرة فوقه وتتمدد على كامل جسده الذي اختفى كلياً من مشهد نظري ومن شارع سقوطه، وكأنه قد وجد أخيراً ما يقنعه كشاهدة تعلن عن وجوده الأخير. ما أن انتبه الناس حتى هرعوا ليقتربوا من مكان الحدث، فرغ المقهى وبقيت وحدي بلا حراك في نفس الكرسي الذي شهد حكايته منذ لحظات.

توقف الرجل الأشيب عن الحديث. شرب القطرات الأخيرة من كأسه. نهض ومضى باتجاه طاولة قناني النبيذ ليملأ كأسه دون أن يسألني شيئاً أو ينتظر رد فعلي على حكايته، واختفى في الجموع.

حاولت البحث عنه من مكاني ولكنني لم أعثر له على أثر وكأن جموع الحاضرين قد أغرقته في فوضاها.

لم يعد لجواري ولم أره بعد ذلك.

مأتم عراقي

مات منذ سنتين رجل عراقي في مدريد.

كنت قد سمعت بالخبر وأنا في محل طارق (عراقي آخر) في وسط المدينة، عندما مررت للسلام وشراء أغراض من محله لصديقتي الإسبانية التي اكتشفت أن محل طارق لبيع الجملة، يبيع بضائعه بنصف سعرها في المحلات الأخرى. فكانت ما أن تتذكر شيئاً حتى تبعث بي. كنت أغلب المرات أرفض بشدة بعد أن قطعت علاقتي بالعراقيين وأخبار العراق. لم يعد هناك ما يهمني في بلدي، لا صديق ولا أهل، فهل أحن إلى تراب معفر بالدم والبارود فارقته منذ أكثر من عشرين عاماً؟

بالطبع كل أعذاري لا تقنع صديقتي، وعدم أرضائها، يعني ما يعنيه، حرمان من الفراش وزعل لا أول له ولا آخر قد ينتهي بطردي من جنتها، وهذا يعني شهور حرمان طويلة حتى أعثر على من ترضى برفقتي. لذا تعلمت أخيراً ألا أناقش طلباتها وأمضي مثل خروف مقاد من حبله حتى منصة ذبحه. لا تظنوا أنني أبالغ في الوصف، فالحقيقة أن التعذيب أفضل لي من الوصول بقدمي حتى محل طارق.

الواقع أن المعضلة ليست في طارق ولا في الآخرين، فأنا أعترف أنني لم أعد أطيق لغو الآخرين، خاصة أبناء بلدي. ما أن يروني حتى يبدأون بفتق خاصرتهم الحكائية ويرمونني بكل ما عرفوه وسمعوه وقرأوه أو شاهدوه. مرة اعترفت أمام مجموعة من العراقيين أنني لا يهمني سماع أي شيء عن البلاد، كما أنني لا أتابع

ما يدور في العراق. فقد نبذت التلفزيون منذ فترة طويلة، ليست القنوات العراقية والعربية على الستلايت، بل جهاز التلفزيون نفسه لم أعد أقترب منه في بيت صديقتي وكنت قد تخلصت منه ومن الرادیو في غرفتي المتواضعة التي استأجرتها مع عائلة تايلندية لا أفقه منهم حرفاً ولا هم يهتمون بوجودي سوى في يوم دفع الأيجار الشهري. ولكن أن تعترف لهم، كنت أتصور أنهم سيعتقونني ويدركون عدم اهتمامي بكل هذا. لكن الحال انعكس وبدأت ما أن التقي بأحدهم حتى يفاجأني بكل تفاصيل الشهور الماضية، مفصلاً رأيه وما سمعه وقرأه وشاهده. كل واحد منهم (لا يعطي فنتك) كما يقال عندنا، أي لا يمنح متنفساً للتساؤل أو إبداء الرأي أو الهروب حتى.

لأكن صادقاً في وصف لقائي الأخير هذا بطارق. لم أره على عهده، كما كان منشغلاً بمكالمة هاتفية مع شخص عراقي آخر من اللهجة التي كان يتكلم بها، ثم بدا حزيناً وساهماً. ما أن انتهى حتى رأيته يسلم عليّ بعجالة ثم يأمر عماله ببعض الأشغال ويخبرهم أنه سيغيب حتى العصر لأنه سيمضي خارج مدريد، مضيفاً أنه سيحضر عملية دفن عراقي في مقبرة البلدية. وقبل أن يخرج ناداني (هي ساعتين وتفض، ومن الله الثواب)، قلت له ولكن من هو هذا العراقي، أنا لا أعرفه؟ وقف بوجهي وقال: الله يخليك يا صديقي، هو الموت له صاحب.. كلها ساعتين نؤدي الواجب ونرجع، لا تقل لي عندك شغل، ترى اعرف سوالفك؟!.

لم تفد احتجاجاتي ولا قسمي بأن صديقتي تنتظرني في البيت، فكان أن أمسكني من يدي ومضى بي حتى سيارته، هناك وجدت سيارات أخرى لعراقيين ينتظرونه، دفعني لأرافقه في سيارته، شغل كاسيت قرآن ولم يسمح لي بأي تساؤل سوى التنصت والإستماع لصوت عبدالباسط عبدالصمد وهو يتلو سورة يوسف الذي أكله الذئب ظناً أو حقيقة.

أفضل شيء في الموت، أو عملية المشاركة في الدفن هذه، أنني لم أسمع أي كلام ولا تعليقات ولا تساؤلات من طارق ولا من أي عراقي آخر سلم علي قبل أن يمضوا بسياراتهم الشخصية على أمل أن نلتقي جميعنا في مدخل مقبرة (المودينا) المدريدية.

عندما وصلنا بعد أكثر من ساعة، طلب مني طارق أن أنزل وأنتظره قرب الإستعلامات حتى يركن السيارة في الكراج الغاص بالسيارات. جلست عند دكة قرب شجرة كانت بمثابة علامة للمدخل، دخنت سيكاراً أحمله معي عندما أخرج كي أعاقب نفسي بعدم تدخين الغليون الذي لا ينزل من فمي. حاولت التفكير طوال الوقت بمن يكون هذا العراقي، وحاولت مع نفسي أن أصنع له تاريخاً طالما أن طارق لم يحدثني عنه، كما أن تساؤلي عنه لم يحظ بأي إجابة سوى أنه عراقي وصل قبل أشهر عن طريق المغرب في قوارب الموت، الذي أهداه موتاً مؤكداً، لأنه مرض فجأة ما أن حطت قدماه أرضاً أسبانية ولم يجدوا علاجاً له، وأشاروا في أوراق وفاته بأنه أصيب بنوبة تشنج غريبة لم يألفوا مثلها أطلاقاً، سببت له تخشباً جسدياً وتحنطاً دون العثور على أية مواد غريبة في معدته. مات وحيداً في غرفة في مستشفى مدريدي. أخبرني أيضاً أن الوحيد الذي صلى على روحه، قس عجوز كان هناك بالمصادفة وظنه مسيحياً، يبدو أن الممرضة أخبرت القس بأن الرجل عراقي ومسلم أيضاً، لكن القس كما حكوا لهم (أقصد لطارق نقلاً عن آخرين، وبدوره أخبرني بذلك) لم يجب الممرضة بشيء، بل هز رأسه وبقي بصلاته خاشعاً لخمس دقائق قبل أن يربت على صدر العراقي ويمضي خارجاً.

طال انتظاري ولم ألمح أثراً لطارق ولا أي عراقي آخر. فكرت أن أمضي للبحث عنه في الكراج، ولكنني بتجوالي فيه لم أر أياً منهم ولا عثرت على سيارة واحدة لهم، فكان أن عدت من جديد لمدخل المقبرة وقررت الانتظار خمس دقائق. لم يأت أحد، فكرت أن أعود للبيت وحدي ولكن موظف الإستعلامات في المقبرة

أخبرني أنه عليّ المشي لربع ساعة أو أكثر حتى أقرب محطة وحيدة، وهناك عليّ أن أنتظر باص المساء. قررت إذا الدخول والبحث عنهم في المقبرة، طلبت معلومات من الموظف، وعندما دقق أوراق دفتر (واردات الموت لهذا اليوم) أشار إلى الجهة المقصودة وترك بيدي مخططاً بإشارات وأسهم ليساعدني الوصول في السليم لهدفي ودون ضياع في عالم القبور المتراصة.

كأي تلميذ نجيب اتبعت تعليمات الخريطة حتى وصلت النقطة المشار لها، وهناك عثرت على الجمع الذي فاق أكثر من مائة شخص. أقتربت وجمدت حركتي احتراماً لطقوس الموت، ولكن من زاوية متاحة لي حاولت تصفح الوجوه المحيطة بي لأرى أين يكون طارق أو أي من العراقيين الآخرين. ولكن زاويتي كانت ضيقة لم تتح لي سوى متابعة حركات الدفّان وتأوهات الأقرب مني. كانت تند بين حين وآخر تنهدات نسوية مما جعلني بشك من أنني عند قبر العراقي لأنني لم أعلم بحضور امرأة معنا. خمنت أنها لا بد وأن تكون زوجته أو ابنته أو امرأة أحدهم. لكن مكاني في الخلف وعدم قدرتي على رؤية الوجوه والتمعن بها جعلني خانساً في مكاني. ركزت كل طاقتي على التأكد من حركات الدفّان والتوصل لمعرفة إلى أية مرحلة من الطقوس قد وصل. لم يكن لي من مخرج حتى الإنتهاء من المأتم كاملاً لكي أستطيع العثور على طارق ومرافقته في العودة. في الوقت نفسه كنت أشعر بحضور آخرين من الخلف، بعضهم يقف أبعد مني بمتر أو اقل. بدربكات واصوات متنافرة سمعت صوت رجل يأمرنا بالخشوع وبدأت صلاته مردداً جمله الأولى باللاتينية وبعد لحظة صمت أخرى سمعته يردد صلات مريم العذراء والجمع من ورائه. في تلك اللحظة وحسب عرفت أنني لم أكن عند النقطة الصائبة، والقبر الذي أنا بقربه ليس بقبر العراقي، والجمع المحيط بي لا يعرفون عن العراق أكثر من معرفتهم بالعربية.

حسبت وأنا أتابع العملية كاملة متأملاً العثور على فرصة للتراجع والهرب، ولكنني بعد فترة التفات لأراقب عملية انسلالي بأنني في الواقع كنت وسط الحشد تماماً ولا مجال للخروج دون أن أضايق الجميع وأثير انتباههم، فقررت الإستمرار حتى النهاية. مع مرور الوقت كنت أشعر بتدافع الناس من خلفي وكلهم يرغب بالإقتراب أكثر، بينما آخرون قد اتخذوا مكاناً قصياً لهم وصمتوا مثلي في انتظار التالي. بينما كنت أتابع ما اعتقدت انها حركات الدفان أو أحد مساعديه، سمعت من ناحية كتفي الأيمن أحدهم يقول (البقاء لله)، صاح بها بأعلى صوته بإسبانية لا غبار عليها. بعد صمت لفترة، أعاد الرجل جملته بصوت أعلى. حينذاك التفت لأرى وجه صاحب الجملة. لم أتعرف عليه. بعد حين صرخ بصوت اعتقدت انه قد خرج من مكبرة صوت لأن الجميع قد التفت أما ليرى مصدر الصوت أو ليؤنبوه بالنظرة الصارمة. حينذاك وحسب لمحت أكثر الوجوه الحزينة ولم أعرف أي واحد منهم. لكن بعد ذلك لم يعد الرجل الذي على يميني إلى الصراخ بل خنع قربي حتى أنني لو كنت في موقف آخر كنت سأظن بأنه يرغب باحتضاني.

بصوت أقرب للهمس سألني: رجاء، هل هنا مأتم السيد تشيمو؟

قلت له: الحقيقة انني لا أعرف أسمه، ولكنني لا أعتقد بان اسمه تشيمو فقد سمعت القس يردد أسماً آخر.

زفر الرجل في أذني وخرجت كلماته ممطوطة: يا للكارثة!

- عذراً؟

- لا شيء، فقط ألعن ساعة حضوري، هذا هو المأتم الثالث الذي أحضره، دون نجاح بأن أصل لغايتي.. لا بد أنهم قد دفنوا السيد تشيمو منذ فترة طويلة، أعتقد أنني أخطأت بمجيئي وحدي:

طمأنته قائلاً: لا تظن أنك الوحيد، انا كذلك هنا بالخطأ، جئت لحضور دفن رجل عراقي ويبدو أنني في مأتم آخر ليس لي علاقة به!

– آه انت واحد منهم... رأيت أصحابك قبل ربع ساعة، هناك في الجانب الآخر وشاركتهم الدفن.

– إذاً انتهوا من الدفن؟

– أعتقد ذلك.. هل تريد أن أقودك لقبره، أعرف الطريق؟

– لا.. لا أعتقد أنني أرغب بذلك، سأستمر مع هذا الميت الذي لا أعرفه.

ثم سكتنا. فكرت أن الرجل الذي على يميني سيتركني ويمضي بحاله، لكنه بقي صامتاً جواري. سمعت من الوسط صلوات القس ودعاءه ووصل لسمعي تنهدات ونحيب بالكاد يتعالى شيئاً فشيئاً، لولا أنني شعرت بالرجل جواري يدفعني للأمام والحشد الذي من خلفنا يتحرك باتجاه القبر. مضيت معهم بصف نسير كرتل عسكري. ما أن وصلت حتى وجدتني قرب النعش الممدد في الحفرة والمغطى ببعض الأزهار وحفنات تراب منهارة فوقه. بحركة لا إرادية انحنيت وقبضت على حفنة تراب ورميت بها على الصندوق وبقيت للحظة مراقباً الخشب اللامع للنعش وامتدت نظراتي للصف المقابل الذي اتشح بالسواد وتميزت من بينهم المرأة التي اعتقدت أنها كانت تبكي منذ لحظات لأنها كانت تراقبني بعينين دامعتين ومنديلها بيدها. شعرت بلكمة لقلبي ولم أستطع السيطرة على قدمي لكي انهض فساعدني الرجل الذي جاء من خلفي. تقدمت وقبلت السيدة واحتضنت البقية ومشيت بعيداً عنهم لأنني في تلك اللحظة وحسب شرقت بغصة لم أتوقعها وبدأت الدموع تنهمر على وجهي دون أن يكون لي قوة على كظمها ولا معرفة تعليل لها. بينما كان هواء المقبرة يلطم وجهي مجففاً دموعي، كانت قدماي قد جابت القبور كلها قبل أن تجد طريق الخروج والمضي مشياً حتى أقرب محطة باص والهرب من هناك.

ما إن وصلت البيت (بيت صديقتي وليس غرفتي في الدار التايلندي)، وقبل أن أسمع تنهداتها التي ستجرني للفراش كعادتها، أو تساؤلاتها عن البضاعة التي أرسلتني لشرائها، دخلت الصالة وأغلقت بابها عليّ وتمددت في الأريكة ورحت في

نوم عميق لم أحس فيه على أي صوت. نهضت مع الفجر، لم يكن خيط ضوء قد بان بعد. دخنت وشربت قدح قهوة. لم يكن لي قدرة على متابعة أية فكرة، فرحت أنتظر متابعاً السماء من النافذة وهي تبدل ألوانها كحرباء في صحراء. بعد قليل فتحت جهاز الكمبيوتر لأتلهى بتصفح الأنترنيت قليلاً لخشيتي من أن تداهمني الأفكار نفسها التي أخرجتني باكياً من المقبرة. دخلت بريدي الألكتروني ووجدت بانتظاري من ضمن رسائل أخرى واعلانات ودعايات، رسالة من صاحبي الشاعر المصري أحمد يماني، يخبرني فيها بأنه مر اليوم بتجربة غريبة عن الموت، ليس هنا مجال لذكرها وسيقص علي حكايتها ما أن يراني، وفي الوقت نفسه يرسل لي قصيدة يطلب رأيي فيها كتبها من وحي الحادثة التي يؤجل روايتها لي (وبعد أن احتسى كأس نبيذ من القنينة التي جلبتها له من شمال اسبانيا في سفرة أخيرة) يقول.. والقصيدة بعنوان (الجنازة) وهي التالية:

مات تشيمو هذا الصباح.
تشيمو ليس صديقي. لكنه مات.
كان يتحدّث بلا انقطاع كمن يسدّد ديناً قديماً للكلمات
التي على وشك أن تهجره.
غدا سألبس معطفي الأسود وأمضي إلى الجنازة
وعندما أعود إلى البيت سأبتسم لنفسي.

اليوم مات تشيمو،
أحد معارفي،
وها أنا لم أعد غريباً في هذه البلاد.

حكاية حقيقية

وصلتني قبل أشهر، رسالة مسجلة في البريد السريع على عنوان بيتي الجديد الذي انتقلت إليه قبل أسبوعين لا غير، والذي لا يعرف به أحد بعد، تخبرني في النهاية بالتالي:

"عزيزي.. خبر سار، سأعود للقائك أخيراً، فقد حصلت على فيزا الدخول لأسبانيا.. يا للفرحة.. سأغادر العراق بعد يومين.. وصولي الساعة الرابعة عصراً من الأحد القادم ورقم الرحلة MESO1991.. أرجو أن تنتظرني في المطار.. شوقي لك وحتى لقاء قريب".

جاءت الرسالة هكذا بلا توقيع، لا أسم يذكر. فكرت أنه ربما كان بعجالة من أمره ولم يضع أسمه كاملاً، أو ربما فكر بأنني أعرفه حق المعرفة ولا داعي لذكره. مع ذلك خمنت كل الأسماء الممكنة من أهل ومعارف وأصدقاء ولم أتوصل لأي أسم محدد. على ما يبدو أن المرسل يعرفني بشكل دقيق. حاولت البحث في معلومات المرسل، ولم أجد عنوانه محفوظاً ضمن العناوين العديدة التي أحتفظ بها. من بين كلمات الرسالة الأخرى، ذكرني بحوادث عشناها معاً، ومقالب مرت بنا، كلها صحيحة وأتذكرها مع بعض التحريف، ولكنني حتى بعد الإنتهاء من قراءة الرسالة لم أتعرف على مرسلها. فكرت أنني قد قطعت مراسلاتي التقليدية منذ فترة طويلة، واكتفيت بالإنترنيت ورسائله الألكترونية، ولكن حتى هذه شجبها صاحب

الرسالة بقوله أنه قد حاول أن يراسلني على بريدي الألكتروني ولكن الرسائل تعود لبريده بسبب خطأ في العنوان، ومن هنا فكر برسالة مستعجلة على الطريقة القديمة.

كنت قد تركت بلدي منذ فترة طويلة، ومع مرور الوقت بدأت علاقاتي تنقطع تدريجياً مع معارفي، واقتصرت في الآونة الأخيرة على رسالة ألكترونية بين حين وآخر، أو مكالمة قصيرة لا تشي بشيء سوى لتذكر أننا ما زلنا على صلة لا معنى لها ولكنها مستمرة لعدم الشعور بوجودك أعزل وحيداً في عالم شاسع لا حد له.

قررت أن أكتب له رسالة تقليدية بدوري كي يعرفني بنفسه معتذراً منه بأنني أمضي أيامي مؤخراً بذاكرة مخرقة، كل ذلك لضغط سنين الغربة الطويلة. ولكن قرب اليوم المحدد لوصوله، جعلني أغير رأيي، ووجدتني مضطراً للذهاب ظهر يوم الأحد حتى المطار لإستقبال صاحب الرسالة الذي لا أعرفه ولا أتذكره.

في المطار حاولت معرفة الجهة التي تجيء منها هذه الطائرة طالما لا يوجد طيران مباشر من العاصمة بغداد منذ عام 1991، فلم أفلح. فتاة الإستعلامات بعد بحث عن رقم الرحلة أخبرتني أنه لا معلومات محددة بشأنها. عندما إعترضت، قالت لي بالحرف الواحد: "الرحلة المطلوبة معلن عنها على الشاشة مع وقت وصولها، ولكن لا إشارة للبلد القادمة منه.. أنا مثلك لا معلومات عندي، فهل تظن بي ساحرة كي أخبرك. أنتظر وصولها وسترى". ثم تركتني وبدأت الحديث مع سائل آخر.

من على شاشة معلومات الطائرات عرفت بوابة وصولها فتوجهت بالقرب منها وجلست على كرسي بين حشد من الناس المنتظرين. التهيت طوال نصف ساعة بقراءة صحيفة حملتها معي، وبين حين وآخر أنظر أمامي للتأكد وحسب من تواجدي قرب الرقم الصحيح للبوابة. بعد لحظات نهض شخص جلس قربي في كرسي مجاور وشغل مكانه رجل عجوز حياني مبتسماً وراحت عيناه تراقبان البوابة

معي. كنت أشعر بالرجل بقربي من تنفسه الثقيل ومن كلمات يطلقها بلا معنى، ربما للتأكيد على دوره في الحياة مثلما نفعل كلنا بمناسبة أو بدونها. ولكن تنهداته الكلامية شغلتني عن القراءة والمتابعة، فحاولت أن أنهض وأترك الكرسي بحثاً عن آخر. في هذه اللحظة التقيت بعينيه، وظل يتأملني بدقة ثم أمسكني من يدي ليطلب مني شيئاً لم أفهمه بسبب الجلبة وعندما قلت له إنني لم أفهم، قال لي: "لقد نسيت نظارتي في البيت، هل تتفضل وتساعدني برؤية شاشة وصول الطائرات وتخبرني هل حصل تغيير في وصول الطائرة برحلتها رقم MESO 1991.؟".

قلت له " بالطبع، لا تهتم، سأراقبها بنفسي، أنا أنتظر الطائرة نفسها".

تركته ومضيت لأقرب شاشة وبحثت عن طائرتنا المرتقبة ولكنني لم أراها هذه المرة. ليس هناك أية إشارة عنها. دققت كثيراً قبل أن أقترب من فتاة الإستعلامات من جديد متسائلاً عن هذا الخلل.

نظرت الفتاة في شاشة الكمبيوتر وقالت لي:

– لا وجود لرحلة بالرقم الذي تطلبه.. هل أنت متأكد من رقم الرحلة؟

– طبعاً.

– يؤسفني أن أخبرك بأنه لا معلومات عن الرحلة المطلوبة

– كيف لا.. قبل قليل كانت مدونة على الشاشة

– لا يمكن، لو حصل تأخير أو تأجيل لأعلنا عن هذا على الشاشة نفسها.

ضغطت بجسدي على الطاولة، وتقربت منها حتى أصبح وجهي قريباً من وجهها، ربما لإشراكها بمعضلة ظننت أن لها علاقة مباشرة بها.

– يا آنسة، أنت نفسك قبل نصف ساعة أخبرتني عنها عندما سألتك عن بلد إقلاعها.. ألا تتذكرين؟

– وهل يجب أن أتذكر كل من يسألني.. هل تعرفت كم عدد الأشخاص الذين يقتربون للسؤال في نصف ساعة؟

– لا.. لا أعرف، أعتقد أنهم كثر.. ولكن ليس معنى هذا أنني أكذب عليك، وأن الرحلة المعلن عنها قبل دقائق تختفي بلمحة عين دون سبب.

– لا يمكن القول بلا سبب.. الحالة أنه لا وجود لرحلة بهذا الرقم، هذا كل ما في الأمر.

– وهل تظنيني موهوماً أو جئت لأتسلى في صالة المطار، لقد أخبرتك...

– أيها السيد . قاطعتني محتجة وبحركة يد تطوح بها جانباً . هناك أشخاص ينتظرون دورهم، وهذا أقصى ما أستطيع إخبارك به، إذا شئت تستطيع الإقتراب من مكتب الإحتجاجات الرئيسي وتستفسر أو تعلن غضبك كما تشاء!

ومثل المرة الأولى تجاهلتني وبدأت تستعلم ممن كان خلفي عما يريد.

كنت قد مضيت باتجاه بوابة مكتب الإحتجاجات الذي أشارت له فتاة الإستعلامات بنية السؤال والإحتجاج حقاً، ولكني تصادفت بالرجل العجوز يمسكني من جديد متسائلاً، فما كان مني إلا أن أخبرته ما حصل.

سكت الرجل، جلس في مقعده واطلق آهة جديدة ليسمعني ما يقول: " لا يمكن هذا، مرة أخرى يحصل الشيء نفسه!".

عندما سمعت جملته، غيرت رأيي وجلست قربه واستفسرت عما ذكره قبل قليل.

لم يفكر العجوز كثيراً حتى قال إنها المرة الثالثة التي يأتي لإنتظار الطائرة المعلنة وفي كل مرة يفاجأ بالخبر ذاته. مع مرضه وضعف نظره وحركته البطيئة مع منع الأطباء له بأن يجهد نفسه، لكنه يصبر نفسه ويقدم للمطار ولا أمل يرتجى منه ليحل له معضلة الرسائل المستعجلة التي تصله والتي تخبره بقدوم أحد من معارفه لإسبانيا. قال لي أنه لم يعرف حتى الآن مصدر الرسائل ولا من أي بلد قدوم الطائرة المفترضة الوصول. حاول أن يكذب الخبر، ويظن به مزحة سمجة من شخص ثقيل الظل، ولكن الرسائل كانت تصله من خارج إسبانيا، تحديداً من

بلده، وهو ما جعله يتأكد أن الخبر حقيقي ولا مجال للتلاعب فيه.. ولكنه لا يعرف ماذا يفعل، مضت أسئلته أدراج الريح ولا أحد يعرف شيئاً عن الرحلة ولا صاحب الرسائل، ولكنه مجبر مع وصول كل رسالة أن يجيء بنفسه لعل القادم يصل مرة ولا يجده بانتظاره.

تشابك عندي خبر رسائل العجوز مع الرسالة التي وصلتني، ولكنني لم ألمح صلة مشتركة بيننا، كل واحد منا من جهة مختلفة ومتضادة تماماً، فهو من أفريقيا وأنا من آسيا، فما العلاقة بيننا حقاً.

– ماذا نفعل إذن؟

تساءلت أو مجرد طرح غير معقول لمسألة لا أساس لها.

– نفعل.. وهل هناك ما نستطيع فعله؟

لم يقل غير ذلك، نهض، لبس قبعته الفرو وتركني وسار باتجاه بوابة الخروج دون أن يودعني ولا إشارة لشيء يمكن أن يدل على ما سيقوم به. ولكنني من مقعدي رأيته يجر قدميه بتثاقل قبل أن يندس في تاكسي عند الشارع الخارجي للمطار، ليس ببعيد عن الواجهة الزجاجية لكرسي جلوسي.

لم اتبع طريقه. نزلت السلالم لأستقل قطار الأنفاق حتى أقرب محطة من بيتي. في القطار الذي سيقطع مسافة نصف ساعة قبل أن يضعني في محطتي، كان في مواجهتي ملصوقاً على زجاج القطار إعلان عن رحلات سياحية لأفريقيا الساحرة مع صور لفتاة أفريقية عارية الصدر، أحراش خضراء و وحوش مفترسة مع كلمات تذكر بالجنة المرتقبة (رحلة خيالية في القرن الحادي والعشرين لعالم من القرون الوسطى) تقول جملة الإعلان. على المقعد المقابل لمقعدي ترك أحدهم أو نسي حتماً كتاباً لكاتب لم أسمع به لا قبل ولا بعد رحلة المطار، أما عنوانه (سيرة الطريق الذي يمضي بنا دون هدف!) فبقي عالقاً في بالي وأتذكره حتى الآن

دون ان أجرؤ تلك اللحظة أن أمد يدي لإلتقاطه أو حمله معي. تركته راقداً في مكانه، هكذا بلا سبب.

مكالمة هاتفية

اليوم نهضت على الساعة الواحدة ظهراً، أمضيت نهاية الأسبوع من حانة إلى أخرى برفقة أشخاص لا أعرفهم، عرّفوني على آخرين لم أعرفهم سابقاً، عرفتهم فيما بعد وكان أن عرّفوني على آخرين، وهكذا كنت أمضي مع كل منْ أراه في البارات ظاناً به صديقاً عرّفني عليه صديق آخر. وهذه هي حكمة السكارى الذين نهرب من العالم لنبقى برفقة الآخرين الذين هربنا منهم في حالة صحو. ليست هذه هي الحكاية التي أريد أن أذكرها، ولكنها حدثت لي ما أن نهضت صباح اليوم التالي لنهاية أسبوع ثمل. حكاية حقيقية من الأول إلى النهاية، ليس لي بها أية يد ولا تدخل ولا لعب فني ولا مما يمكن أن يخطر على بال أحد. الحكاية أسردها تماماً كما جاءت بدون أي تطويل ولا زيادة ولا تجميل. هي واحدة من هذه الحكايات الواقعية التي تجعلنا نشك مئات المرات بقدرة خيالنا على أستيعاب الواقع.

ما أن جلست في الصالون متلذذاً برشفات قهوة و سيكار كوبي صغير وجدته مرمياً في علبة قرب جرائد قديمة على المنضدة، ربما أهداه لي أحدهم (لا أذكر من هو حقيقة)، حتى انتبهت إلى أن هاتف البيت يشير ضوئه المنبه إلى أن هناك أكثر من عشرين مكالمة هاتفية في الليلة السابقة. حاولت معرفة من أتصل بي ولكنني وجدت الرقم مشفراً ولا يشير لأي جهة ولا لأي شخص. قبل أن يتيح الوقت لرأسي الدائخة أن تحزر من يمكنه ان يتصل بي وبإلحاح كل هذه المرات، حتى

رن الهاتف، راقبت الرقم ووجدته مشفراً لا يشير لأحد، فتحاملت على نفسي وأجبت لأعرف من هو هذا الذي يصر بلا هوادة ليكلمني:

– آلو

– آلو تفضل...

– هل يمكنني أن أتكلم مع السيد عبدالهادي

– أنا هو...

– الأستاذ سعدون

– نعم بعينه...

– غريب، البارحة أجابتني السكرتيرة قبل ان تقول لي أنك في إجازة

– سكرتيرتي...

– نعم، هي أخبرتني بذلك

– لكن ليس لي مكتب كي تكون لي سكرتيرة ولا...

– أقول لك الحق، وأنا أيضاً تفاجأت

– وهي قالت لك ذلك...

– أجل، هذا ما فهمته منها، إذ أن أسبانيتي ليست على ما يرام

– إذاً حدثتك بالإسبانية...–

– نعم بالتأكيد، رغم أنني أقول أن لها لهجة غريبة، من الممكن أن تكون مغربية ولم ترغب أن تهذر معي بالعربية، تعرفهن كيف يكن، ما أن يتعلمن لغة أجنبية حتى يرفضن الحديث معنا بالعربية.. حزرته من انفعالها، أظن أنها قالت لي كلمة بالعربية ثم غيرت رأيها وعندما أصريت عليها، سمعت موسيقى أو صوت منبه.

– ياه، ربما.. منبه.. حتماً...

– قد يكون، ولكنها الملعونة في المرة التالية، كانت لها لكنة فرنسية تماماً وكلمتني بالإسبانية، وأنا لم أفقه منها حرفاً واحداً.. كنت أكرر أريد أن أتحدث مع سعدون، الأستاذ سعدون، السيد عبدالهادي، ولكنها لم ترغب بالإستماع، لينقطع الإتصال، وأحاول مرة أخرى، ومن جديد بلكنتها الغريبة وتصر على محادثتي بالإسبانية رغم أنني أؤكد لها أنني لا أعرف شيئاً من الإسبانية، فقط أريد الحديث مع السيد سعدون..

للحظة وأنا أستمع له، الحقيقة فكرت أن أغلق الخط، أو أن أتركه يهذي إلى الأبد دون إجابة، ولكنه بالتأكيد لن يتركني أمضي يومي بهدوء، لذا قررت أن أجاريه إعتقاداً مني بأنه معتوه، أو مجرد رجل غريب يسأل عن حاجة، فواصلت مجاراته:

– لا يهم، سأحاول معرفة من وراء ذلك...

– إمرأة وليست رجلاً، أقول لك ذلك حتى لا تخطئ بمعاقبة المقصر، ويمكنني مساعدتك لأنني أعرف صوتها جيداً.. بالطبع ليست هذه الأيام، فأنا مشغول بعدة أعمال، ولا يمكنني السفر إلى مدريد، ربما في مناسبة أخرى.

– إذن حضرتك لا تعيش في مدريد...

– كيف أعيش في مدريد أستاذ عبدالهادي، ألم تسمع بقانون ترحيل المهاجرين

– آه، ولكن ما علاقتك بهذا...

– أنت محق، ولكنك تعرف أنه بعد طلاقي من ماريا تريسا، العاهرة هذه، لم أستطع الحصول على عقد عمل ومرت الأعوام الخمسة ولم أجدد الإقامة وسقطت عني الهوية القانونية، لذا أتجول في المناطق الريفية النائية حتى لا أتصادف مع شرطة الهجرة..

– انت في مكان نائي...

– عذراً أستاذ، أعرف أنك ثقة، ولكنني لا أستطيع النطق بمكان تواجدني، الحيطة يا أستاذ الحيطة

– أنت محق، الحيطة ضرورية...

– ثم أنه من الضروري ألا نشك ببعضنا البعض

– هذا ايضاً...

– والثقة ليست كلمات وحسب، عشرة طويلة

– تقول عشرة طويلة...

– طبعاً، ماذا تسمي ستة أعوام من النيك ليل نهار والخدمة في كل شيء

– عفواً لم افهم...

– العاهرة تلك، ماريا تريسا، أعوام أقول لك، نيك وتدليل ليل نهار، وها أنت ترى النتيجة

– فهمت...

– أنت أكثر من يدرك محنتي أستاذ، من يكوى بالنار يذق حرقها

– تقصد...

– أعرف أنك لا تريد أن تتحدث عن علاقاتك السابقة، ولكننا أصدقاء، ونعرف أسرار بعضنا

– ماذا...

– ولكن على أية حال، علاقتك بـ أنجيلا ليست مثل علاقتي بهذه العاهرة ماريا تريسا

– .....

– لا أعرف كيف وماذا يمكن أن يفعل الواحد منا في هذا الزمن الرديء

– ولماذا لم تفعل شيئاً مع ماريا تريسا لطالما..

– لا تذكرها لي رجاء، كيف يمكن رتق الكأس بعد أن ينكسر. تعرف ظروفي أستاذ، ومع ذلك كنت أفعل المستحيل كي تكون سعيدة، كانت تسميني فحلها، الفحل أبو إير لا ينام، الحبشي القاتل، المورو المتوحش، السفاح الذي لا يكل ولا يمل، وكل ذلك تأتيني بحكاية انها بعد كل هذه السنين بدأت تشعر بالملل ولم تعد تشعر باي ميل عاطفي نحوي.. هل أقطع أوردتي واموت، كي أؤكد لها أنني لا أفهم معنى الميل ولا العاطفة التي لم نتحدث فيها وعنها طوال ستة أعوام

– شيء من التغيير لا يضر...

– برحمة أبوك أستاذ لا تحاول أن تبرر لها

– لست ابرر...

– المسألة بسيطة، العاهرة ملت من النيك معي وأرادت البحث عن آخر

– آه، ربما

– لا ربما ولا هم يحزنون، مسكتها بيدي هاتين

– .....

– متلبسة كما تقول أنت أستاذ. كان قبلها قد حدثتني عن التباعد الروحي والجسدي وما إلى ذلك من ألعاب العاهرات، ولكنها لم تقل شيئاً بعد عن إفتراقنا النهائي. في يوم من الأيام، عدت ظهراً، كان الوقت صيفاً وجهنم فتحت أبوابها علينا تلك السنة، وما أن دخلت البيت حتى سمعت صراخاً لا مثيل له. ركضت ناحية الغرفة خشية من وقوع حادث لها أو مكروه ولكنني آه... ووجدتها العاهرة تمتطي شاباً صغيراً وتصرخ وكأنها مهرة. لم ترني هي ولكنها أحست بخوف الصبي ومحاولته إنزالها من فوقه، حينذاك أنتبهت، ولكنها لم تنزل بل أوقفت الصبي المرتعب، ودارت ناحيتي قائلة: لقد حذرتك أن كل شيء أنتهى بيننا، الآن رجاء أخرج فأنا في غرفتي ولي خصوصياتي.. تصور.. العاهرة، تعملها في غرفتنا المشتركة وتطلب مني الخروج.. هكذا ببساطة

– و أنت...

– كيف أصفها لك، دارت الدنيا في عيني، ولم تكن سوى بحجم حبة خردل

– لم تفعل شيئاً ...

– ماذا، أفعل. يا إلهي، هجت وكأنني في معركة ولم أعرف من أين ابتديء

– تقول أنك...

– كسرت البيت على رأسها، جررتها حتى السلم وطرحتها هناك، وعدت راكضاً لأمسك الصبي، ولكنه هرب عارياً من النافذة، وكنت قد قررت إيقاعه، ولكنه كان محظوظاً إذ نزل من البالكون مباشرة حتى الشارع، رمى بنفسه، سقط، أنكسرت قدمه أو كل أضلاعه، لا يهم، وما أن طللت برأسي حتى وجدته يركض في الشارع هائماً، خصيتاه تتأرجحان، وأيره قائماً كقصبة تحركها الريح...

– يا للوصف المذهل...

– لا تتحامق معي أستاذ، رأيته وحسب بهذا الشكل، ولكنني لم أتوقف عند ذلك، قررت النزول والركض وراءه. ما أن خرجت حتى وجدت جمع الجيران عند السلم متأهبين للإنقضاض علي، وبقدرة سحرهم أخفوا العاهرة عني، لبدت في بيت أحدهم. صرخت بهم وهددتهم وحاولت أن أدخل أقرب باب مفتوح ولكنهم لم يسمحوا لي بل انقضوا علي يريدون مسكي وتسليمي للشرطة.. تصور أنا أمضي للشرطة، والعاهرة يتوجونها.. صرخت بهم يا أولاد القحبة ألا تدركون مصيبتي، تخونني مع صبي وتريدون حمايتها.. لم يسمحوا لي سوى بالهذر فقد ربطوني بينهم، كل يد ساعدت بمسكي محاولة منهم كي لا أقوم، وأبدأ البحث عنها.. عن الزانية تريسا، بينما كنت في محاولاتي بالرفس والتخلص منهم، كنت أسمع صوتها يأتي من أحد البيوت وهي تحثهم على أن يتصلوا بالشرطة ويسلمونني لهم (ليسجنوا هذا المتخلف، لقد أذاقني المر.. التعاسة، ويأتي الآن ليتهمني بالخيانة.. آه يا إلهي ماذا فعلت بحياتي!) فلم أتمالك نفسي وأنا أسمعها تنتحب وتكذب سوى

أن جمعت كل قواي وطرحتهم بعيداً عني، فرأيتهم يتراكضون كل واحد إلى بيته ويسدون أبوابها دوني.. لطمت، صرخت، كسرت الأبواب وأنا أهددهم أنني لن أتركهم بحالهم إن لم يسلموني قحبتي تريسا كي أشفي غليلي منها.. لكن لا جواب، الخوف أخرسهم وكنت في كل دقيقة تمر أكثر شراسة وإنفلاتاً، لم أترك أي شتلة في الممر ولا نبتة أو مزهرية أو قطعة موزاييك هناك دون أن أرمي بها الأبواب حتى تركت الممر يرثى له من الأزبال والأتربة.. آه ويا سبعين آه.. لكنني لم احظ بها، بهذه الزانية لأريها نجوم الظهر، فقد سمعت بعد لحظات أصوات ووقع أقدام قرب بوابة البناية الرئيسية وتناهى لي أن أحدهم من خلف الباب يقول أن الشرطة قد وصلت وسيقطعون لي عضوي ويحشرونه في إستي.. نعم بحق رأسك أستاذ قالوها حرفياً وليست من خيالي.. هجت ورفست الباب الأول والثاني والثالث وهكذا غبت في شقتنا ومن هناك رميت بنفسي من النافذة الخلفية ورحت أركض بلا وجهة معينة بعيداً عن الشرطة أولاد الكلب الذين سينقضون علي ويرمونني في السجن وينتصفون لزانية مثلها، هذه هي العدالة، هل هذه عدالة بربك؟!

– .....

– أنت معي أستاذ؟

– أجل معك، يا للحكاية المروعة...

– أليس كذلك أستاذ، ولكن لتصبر علي، فلم تنته بعد

– آه، ما تزال للحكاية بقية...

– طبعاً، وهل تظن بي الحمق كي أترك الزانية تستمتع بالراحة والنيك والبيت، وأنا آكل الضيم والتشرد

– طبعاً لم تفعل ذلك...

– كيف ذلك، رحمة لوالديك أستاذ، منذ لحظة خروجي من البناية هارباً وأنا لا هم لي سوى تتبع أخبار الزانية تريسا، ولا وقت عندي أمضيه غير ترقب فرصة

لمعاقبتها. كان شغلي طوال الخمس سنين الأخيرة تتبع آثارها، متى تمضي للعمل، وقت خروجها، مع من تخرج، من يزورها في البيت، سفراتها، عطلها الصيفية، الشتوية، الربيعية، كنت أسجل كل تحركاتها.. ولكنني للأسف لم أستطع الإقتراب منها بعد، فالشرطة كانت تراقبني ولم أترك لهم فرصة النيل مني، كما أنها كانت محاطة بحراسة مشددة، تصور القحبة وأنا أراقبها من زاوية شقة استأجرت غرفة فيها تقع أمام بنايتها تماماً، من منظار مراقبتي، رأيتها تفتح فخذيها للجميع، لكل من يقدم لشقتها، رأيت حرسها من الشرطة براحتهم في البيت، يمتطونها الواحد بعد الآخر.. ومن ثم نطلب عدالة من هؤلاء، لا بد أنها صادقتهم كلهم، ومن يغمس في طبون تريسا، لا بد أن يقع صريع فتنتها، ومن ثم في كل يوم لها حارس جديد، وعاشق وخادم ولا تخرج إلا برفقة أحدهم. كنت أعرفهم واحداً واحداً، ولكن بعد كل هذه السنين، لم أستطع تخمين عددهم، ومع الوقت بدأت أنسى أشكالهم، ولكن شكلها، الزانية، مجسماً أمام عيني لا أفارقه، وانتظر كل يوم فرصة سهو أو نسيان من احد حراسها كي تراني بمواجهتها ولا مجال حينذاك لهرب أو معاتبة، ستكون فرصتي للقصاص منها. ساحملها معي بغمضة عين، سأكمم فمها وأسحبها حتى الأحراش في المنطقة الزراعية النائية حيث أهيم متشرداً، وحينذاك سأحاسبها بتأن.

– لا تعني أنك...

– لا، لا تتصورني همجياً أستاذ، كل ما في الأمر سأعاقبها بالوحدة، سأعاقبها بعدد أيام تشردي وتعاستي.

– كيف ذلك...

– ألم تقرأ حكاية (الجلاد والضحية)، أجدني في نفس الموقف الدفاعي، القصة ذاتها

– ولكن الحكاية لا تنطبق على ما جرى معك...

– كل شيء نفسه، الظروف، الظلم، الحسرة، لا تنظر للمحتوى الحكائي فهو هش بحد ذاته، ولكن القصاص، العدالة، الإنسان ينتصر في النهاية.. أنت ناقد مهم أستاذ وحكواتي، فكيف تفوتك مثل هذه التفاصيل

– آه شكراً، ولكنني ما زلت مصراً على أن القصة لا تخرج عن أن تكون محاسبة أخلاقية في زمن ما بعد حرب ودكتاتورية و...

– وهل هناك أكثر دكتاتورية ومحاسبة أخلاقية وزمن حروب مثل التي مررت بها وعشت ظروفها بسبب هذه الزانية تريسا.

– لنقل هذا، ولكن أنت تعلم بالنتيجة، القصة تنتهي بترك كل شيء على حاله، لا دم ولا جريمة ولا ...

– أجل، أجل، هنا هو ضعف حكاية (الجلاد والضحية)، الشعور الإنساني ينتصر للخير، ولكن الحقيقة أننا لا نملك تلك القدرة الإلهية على العفو، العفو من قدرتهم هم وحسب، أما نحن البشر فمهمتنا أن نمضي في الحياة بشريط لاصق و مقص وحبل متين و قدرة مشاورة الأيام التي مضت التي ستنتقص لي ولن تمنح العفو للعاهرة تريسا.

– إذن نرجع من جديد إلى أنك لا تنوي فعل الشيء نفسه في الجلاد والضحية وتعفو عنها...

– سيكون كل شيء بطريقة مختلفة، مبتكرة، لن تنساها تريسا طوال ما تبقى لها من حياة، صدقني ستطلب مني بنفسها القصاص على أن تتابع تفاصيل ما أنوي لها من يوميات مبرمجة ومكتوبة منذ فترة طويلة، حتى أنني سميتها (الزانية والضحية) وهي ما يمكن أن أسميه أفضل حكاية كتبت عن العدالة بعد رواية (البؤساء)، ألا ترى أنها جديرة بأن تظهر للعلن؟.

– ألا تقول أن الشرطة تتبعك...

– لا أعني هذا، أقصد قصتي، الحكاية التي كتبت وقصصتها عليك، (الزانية والضحية)!

– تقول أنها قصة.. وحكايتك مع تريسا و...

– هي نفسها، القصة، حكايتي، الظرف الإنساني، أنت تعرف أن القصص الواقعية اليوم هي التي تحظى بجمهور واسع، قراء أستاذ، قراء.. ها ماذا قلت أستاذ؟

– عن أي شيء...

– أن تنشر لي القصة، لن أطالبك بأي مردود مالي، يكفيني أن أراها منشورة في كتاب، وليس المهم أن تحمل أسمي، الأهم أن يطلع العالم على حكاية جديدة عن العدالة.

– ولكن ما علاقتي بالنشر و...

– أنا متابع لك منذ سنين أستاذ وأعرف أنك تدير مجلة وصاحب دار نشر، أفضالك على كثير من الكتاب.

– عن أية أفضال تتكلم وأي دار نشر...

– حاول، أرجوك، ليس من أجلي، بل من أجل الإنسانية. إن وجدتها طويلة على مجلة، سأمنحك حق نشرها في كتاب مستقل، لن أزعجك صدقني، فقط سأرتاح عندما أراها منشورة.

– هل تقول أن كل ما سردته لي هي القصة نفسها التي تنوي كتابتها...

– كتبتها أستاذ منذ فترة طويلة، فقط أترقب النهاية لا غير.

– طيب وما هو المطلوب...

– لا شيء، أنتظرني حتى أبعثها على عنوانك، سيكون عليك أن تنتظر قليلاً حتى أجد لها نهاية مدهشة، مشوقة، فكما تعرف أنني حتى اللحظة مازلت حائراً في إيجاد ختام مقنع، ولكنها ستجيء اليوم أو بعد شهر.. ستكون عندك في

غضون فترة قصيرة، سأعتمد عليك، أنت أملي الوحيد بالحفاظ على وجودي، على نشر الحكاية!

– ...

– أقول اتفقنا، لن أهذر بالمزيد، سأحرص على أن تكون عندك قريباً. ياه...

– عفواً، هل تسمح لي بسؤال؟ منْ حضرتك إذا أمكن؟ سألته أخيراً.

كان الخط قد أنقطع، قطع، أو ببساطة أنتهت المكالمة الهاتفية.

لم يصلني بعد هذه (الياه) التي أطلقها كرصاصة راحة أبدية.

بقيت حتى الآن أفكر ماذا قد اختار الروائي صاحب (الزانية والضحية) من نهاية لحكايته. هل من المفروض علي التأكيد على أنني لم أعرف بعد ذلك عنه أي شيء. لم يعاود الإتصال، ولم تصلني منه اية رسالة.

التربية السيئة

كان ذلك ليلاً، في وقت متأخر، ربما قطعت تذكرة دخول صالة السينما على دور الواحدة فجراً أو قبل ذلك بقليل. ما أتذكره هو أنه كان الدور الأخير لذلك اليوم. قررت أن أمضي لوحدي، لم أدع أحداً ولا حتى صديقتي العاشقة لأفلام الإسباني بيدرو المظفر والتي تركتها في شقتي غاطة في نومها. كان شيئاً ما دعاني للخروج مشياً من البيت في ذلك الجو الماطر، قاطعاً جادة غران بيا، مروراً بساحة أسبانيا، قبل أن أدلف في الشوارع الخلفية للبارات المنتشرة هناك والتي تسمى بالكهوف، تشبهاً أو تيمناً بالإنسان قبل آلاف السنين. بين هذه الكهوف الغاصة بالناس، هناك سينما صغيرة، قطعت لنفسي تذكرة بالصف الأخير وانتظرت لمدة قليلة في أحد البارات المجاورة لشرب بيرة قبل دخولي لرؤية فيلم بيدرو المظفر المعنون (التربية السيئة). كنت أرتشف من كأسي متأملاً من زاويتي اليافطة الكبيرة التي تعلن عن الفيلم، في تلك اللحظة أحسست بها تمسني بدفعة خفيفة وتهرول خارجة من البار. كانت تلك الفتاة نفسها التي لمحت وجهها المنمش حال دخولي وابتسمت لي دون مناسبة. اقتربت مني وضربت بي بشكل قصدي. فكرت بكل شيء إلا أنها تكون قد سرقتني. ولكني رأيتها تخرج من البار مهرولة. رأيت الآخرين يراقبونني بعيون حائرة وسمعت أكثر من واحد منهم يقول لي: لا تتركها تهرب.. لقد سرقت محفظتك! الحقيقة أن شعوراً غريباً لم يطرأ علي سابقاً أبقاني هادئاً بلا حراك، التحرك الوحيد كان ليدي وهي تقرب الكأس من فمي

لأعاود الشرب. كان الجميع في وجوم، إستغراب أو ربما فضول أكبر. حتماً فكروا بحالتي وظنوا بي مس من الجنون، حتى سمعت تعليق واحد منهم (بالطبع لم أعلق على أية كلمة) قائلاً بما يشبه إكمال جملة سبق وأن تداولها معهم: لا بد أنه واحد آخر من أولئك!. لم التفت له ولم أسأل عن أي شيء يقصد ولا منْ هم أولئك الذين حشرني بينهم. تركت قطعة نقدية على الطاولة ثمن البيرة، زررت معطفي وخرجت دون أن أرفع عيني.

قرب السينما مددت يدي لجيب بنطلوني الخلفي لأتأكد للمرة الأولى من إختفاء محفظتي حقاً. بقيت خمس دقائق على بدء الفيلم، اكتشفت أنني قد وضعت بطاقة دخول السينما في صفحة كتاب حملته معي، اقتربت من البوابة وقررت الدخول لرؤية الفيلم. بحساب بسيط فكرت أن أبلغ الشرطة صباح اليوم التالي، طالما أن الوقت متأخر ولن يجديني نفعاً الآن، ثم إن أقصى شيء سأخسره القليل من النقود، بطاقات تعارف وهويتي الشخصية. محيت من ذهني كل ما جرى قبل دقائق وركزت انتباهي على تفاصيل الفيلم.

في الصالة لم نكن سوى أفراد لا نتعدى أصابع اليد الواحدة. اتخذ كل منا مكانه في زاوية بعيدة عن مقاعد الآخرين. مر الفيلم وكنت أتابع تفاصيله بلا مبالاة. الحقيقة أنني يجب أن أعترف بأنني لم أتابع الفيلم أطلاقاً، حتى أنني بعد كل هذه السنين لا أتذكر ما يدور الفيلم. وسط الضوء الخافت للصالة، طرأ لخاطري أنني قد مررت بهذا الحادث في سنوات ماضية، الفرق أنني اليوم في مدريد والحادثة القديمة حصلت معي في بغداد. لكن رد فعلي في بغداد كان مختلفاً تماماً. عندما اقترب مني السارق (كان رجلاً وليس امرأة) وأنا قرب سينما أطلس، ظننت به قد ضل طريقه ولا بد أنه يقترب ليسألني عن مكان معين. ولكن ما أن أصبح في مواجهتي حتى شعرت بيده تشكل ما يشبه سكين ليشكني بها في رقبتي، بتأثير الضربة انحنيت وكدت أسقط، عندها أدخل الحرامي يده في جيب بنطلوني

الخلفي وحمل محفظتي وجرى مهرولاً في الشوارع الخلفية لبغداد القديمة. مترنحاً قمت على قدمي وأحسست بأكثر من واحد يساعدني ويجري معي للحاق بالسارق. كنا نركض في البداية أكثر من خمسة، تكاثروا لعشرة، قبل أن أشعر بنفسي وكأنني محاط بكل ناس الشارع.

جريت في أكثر من شارع فرعي واتجاه ولم اعثر على أي أثر له، حتى وجدت نفسي من جديد أمام صالة السينما. جلست عند البوابة لأسترجع أنفاسي، ثم شعرت بحركة أقدام أخرى تعود. ظننت بهم أولئك الذين حاولوا مساعدتي، ولكنني لم أنتبه لأي وجه أعرفه. الأقدام تسارعت وهي تدخل صالة العرض حيث لم يبق سوى دقائق على بدء الفيلم. رآني مراقب الصالة وسألني إن كنت أنوي الدخول، فالفلم قد ابتدأ. نظرت له، اتكأت على ساعدي ونهضت للدخول دون ان أفكر بأية عاقبة معينة. كنت قد قررت الدخول وحسب.

مثلما حدث معي في بغداد (نسيت حتى عنوان الفيلم) لم أعد أذكر شيئاً من فيلم المظفر ولا تفاصيل ما جرى لي بعدها. خرجت من صالة العرض ومضيت في طريقي ما بين مقاهي الكهوف مرة أخرى. دخلت واحداً منها لأشرب كأسي الأخيرة قبل عودتي للبيت. وقفت قرب الطاولة وطلبت بيرة. كان البار هادئاً ولم أر أحداً قربي. بعد لحظات سمعت أصواتاً من الزاوية البعيدة، لمحت شخصين يتناجيان، ربما عاشقان في منتصف الليل يرغبان بالعزلة والكأس. مضيت بتأملاتي وكأسي حتى سمعت صوت امرأة تقترب من الطاولة وتطلب من النادل شيئاً ما. التفت ورأيتها. كانت هي نفسها، الفتاة التي سرقت محفظتي. ركزت على وجهها المنمش وحزرت أنها لا تتعدى العشرين، بملابس هيبية وعشرات الثقوب في أذنيها محلاة بحلق مختلف الألوان. أدركت أنني أنظر لها فابتسمت لي وغضت النظر. كنت ما أزال أنظر لها بتركيز، حينذاك انتبهت لتبدل في ملامح وجهها وعودتها للنظر بوجهي. بقينا ننظر لبعضنا دون أي تحرك ولكنني بدون كلمات

افهمتها ما لم أقله سابقاً. لم تغمض عينيها ولا جاءت بحركة، بل العكس، اقتربت أكثر مني وأشارت لي دون أية كلمة أن أدعوها لكأس على حسابي. أشرت للنادل الذي وضع كاس بيرة كبيراً أمامها. ودون انتظار، رفعت كأسها وجرعته دفعة واحدة. مسحت فمها ورأيت تعابير امتنان على وجهها. وضعت الكأس الفارغة على الطاولة، زررت معطفها وهمت بتركي. لكنها توقفت للحظة وعادت للخلف. اقتربت مني وكنت أظن أنها ستحدثني ولكنها مرت من جانبي، مستني بنفس طريقتها الأولى، أو هذا ما شعرت به وخرجت من البار دون أن تركض حتى اختفت عن نظري. لمحت في الزاوية الرجل المرافق لها ما زال ينتظر.

لم أتحرك وبقيت ماسكاً بكأسي.

لم تمض سوى دقائق حتى كنت قد عدت في طريقي مروراً بساحة إسبانيا، قاطعاً جادة غران بيا لأصل شقتي وأنام بكل طمأنينة حتى ساعة استيقاظي على صوت صاحبتي.

كانت قد نهضت قبلي، غسلت وأفطرت وعندما حانت ساعة خروجها للعمل، سألتني أن أقرضها بعض النقود لشراء الغداء عندما تعود ظهراً. فتحت عيني ورأيتها تلوح لي بورقة نقدية وهي تخبرني: سحبتها من محفظتك، لم يبق لي وقت، علي الإسراع للوصول لمحل عملي. ثم انحنت وقبلتني وخرجت.

درت برأسي إلى حيث أشارت صاحبتي، ووجدت ما يشبه محفظتي على الكرسي فوق بنطلون الليلة الماضية الذي رميت به على الكرسي. ليس هذا مجال لتخمين أي خدعة. كانت محفظتي نفسها. في بغداد لم أحظ بنهاية مشابهة بالطبع. لا أعرف منْ ذكر لي عن تلك الأشياء المرعبة التي تحدث لنا دون أن نفقه تعليلاً مناسباً لها.

لم ألمس المحفظة ليومين، بقيت مرمية في مكانها وكنت كلما دخلت غرفة النوم، اتأملها كمذنب ينتظر القصاص.

حياة بديلة

قبل سنوات حصلت على عمل كمترجم في شركة النفط الوطنية الإسبانية. كان عقداً وقتياً يعتمد اعتمادا كلياً على حجم الوفود العربية التي لبلدانها علاقة بالشركة. آنذاك اقتحم الأمريكان بغداد ومضت سنة على تشكيل أول حكومة عراقية، وكان أن سارعت الشركات العالمية لمد يد التعاون مع الحكومة لغرض كسب عقود مستقبلية، ومنها بالطبع إسبانيا. من هنا جاء اتصال الشركة الإسبانية بي، فالنية أن أعمل عندهم مترجماً مرافقاً للوفد العراقي الذي سيصل مدينة برشلونة في الأيام القادمة. أخبرتني سكرتيرة الشركة (من صوتها خمنت أنها شابة، وهذا ما لمسته بعيني بعد ذلك) بأن العقد قد يطول تبعاً لحجم وعدد الوفود القادمة، وأضافت أن علي التواجد في مدينة برشلونة لخمسة أيام في الأسبوع.

كنت أعيش في مدريد، المدينة التي لم أغادرها إلا لأوقات قليلة، من هنا جاء العمل في برشلونة بمثابة اختبار لي، هل أستطيع مغادرة مدينة عشت فيها لأكثر من عشرين عاماً؟ وجدت نفسي في مواجهة معضلة لا فرار منها، وهو القبول فوراً ودون مماطلة، إذ كنت عاطلاً عن العمل وفي حاجة لتمرير أيامي المدريدية بدخل معيشي جديد لطالما فرص العمل في العاصمة أصبحت صعبة يوماً بعد آخر. فكرت أن عملاً مثل هذا سيقيني محنة التشرد والحاجة لأشهر قادمة إذا ما وفرت من رواتب إقامتي وعملي في برشلونة كمترجم لوفد عراقي لا أعرف عنه أي شيء ولم أسع لمعرفة أي شيء عنه طوال تواجدي معهم.

الحقيقة أنني كنت سعيداً طوال إقامتي في برشلونة، لم يكن العمل صعباً بالمرة، كما أنني لم أمارس الترجمة إلا في مواقف معدودة، لإن أغلب الحوارات كانت تتم بينهم بالإنكليزية، مما حصر دوري على مرافقتهم هنا وهناك وأن أكون دليلاً لهم في المدينة فيما لو احتاجوا لشيء ما. مرات عديدة تساءلت عن جدوى وجودي معهم لطالما حاجتهم لي كمترجم ضئيلة جداً؟ كانت الوفود تمضي يومها في دورات تدريبية طوال اليوم تقريباً، مما أتاح لي فرصة التعرف على مدينتي الجديدة وقضاء الوقت في التسلية والتفرج والتمتع بمناظرها حتى إن منْ كان يراني آنذاك كان سيحسبني واحداً من سياح المدينة. دفتر صغير وكتاب وكاميرا تصوير ترافقني في تجوالي، وكنت لا أفكر بالوفد ولا التزاماتي حتى ساعة العودة بهم للفندق على ان يرتاحوا لنعاود الكرة لليوم التالي.

ما كان يقض مضجعي هو التنقل ما بين مدريد وبرشلونة، فالعقد يتطلب مني التواجد لخمسة أيام واستراحة يومين في نهاية الأسبوع أمضيها في شقتي في مدريد. مع مرور الوقت تكاسلت في صعود القطار أو الطائرة من برشلونة إلى مدريد والعودة به، وفكرت أن أستأجر غرفة في بيت مشترك أمضي فيه كل أيامي في برشلونة حتى ينتهي عقدي مع شركة النفط الوطنية. كنت قد أبديت رغبتي هذه لسكرتيرة الشركة على أن تساعدني في إيجاد غرفة سكنية لي، ولكن (لنمنحها هنا إسماً وهمياً هو آماليا) أخبرتني أنه لا داع لذلك ويمكنني أن أتقاسم العيش معها في شقتها. نسيت أن أقول إنني بمرور الأيام في برشلونة، كنت أمضي وقتاً طويلاً برفقة آماليا سواء في الشركة نفسها أو خارجها، وبالتتابع توطدت علاقتنا وشعرنا بانجذاب الواحد للآخر، حتى أننا شعرنا وكأننا زوجان أمضيا العمر كله في بيت واحد. كانت من النوع اللطيف، قليلة الكلام وعملية في شؤون الشغل وفي الحياة نفسها، لذا لم يمر وقت طويل حتى عرف الجميع بعلاقتنا. أيام العمل كلها كنت أعيش معها في شقتها ماعدا نهاية الأسبوع الذي أمضيه في مدريد، من هنا جاء

ردها بأنني يمكنني الإقامة معها بشكل دائم ولا داعي للتنقل ما بين مدريد وبرشلونة. لم يكن بي حاجة لغرفة لي لوحدي، لذا وافقت على نقل أغراضي القليلة ومشاركتها غرفتها التي ستصبح بمرور الوقت غرفتنا المشتركة.

بعد أشهر من عملي برفقة الوفود العراقية، شكلتُ لي ما يشبه حياة مستقرة نوعاً ما، وقطعت الصلة بمدريد جذرياً، خاصة بعد أن تلقيت إخطاراً من مالك شقتي في مدريد يخبرني بأنه قد رمى بأغراضي خارج البيت وأجر الشقة لشخص آخر بعد شهرين من اختفائي وعدم تسديد الدين الذي بذمتي. لم أندم للحظة على ذلك، كما أن أغراض شقتي المدريدية لم تكن بالأهمية الخاصة، مجرد أدوات منزلية رخيصة وعدة طبخ ولوحات مزيفة كنت قد زينت بها الجدران وبضعة كتب لا أذكر من عناوينها شيئاً، كلها يمكنني الاستغناء عنها دون أن يرمش لي جفن. شعرت بالارتياح حقيقة، وبدأت أستمتع بحياتي البديلة في برشلونة والتي راحت تتجذر وتبني لها علاقات ومعارف وأماكن مألوفة. كنت في تواجدي الطويل في برشلونة قد صنعت لي عالماً آخر، تعرفت على المدينة حتى حفظت طرقها وشوارعها وناسها وشرعت بتعلم لغتها الثانية الكتالانية وأصبحت مشجعاً شرساً أحرص على حضور كل مباريات نادي برشلونة. لم أكن أشعر بغربتي فيها أو على الأقل كان إحساسي هذا هو المسيطر خلال إقامتي التي بدأت تقترب من إتمام عامها الأول. الأهم في كل هذا أنني كنت متأكداً تماماً بأن برشلونة ستكون مدينتي إقامتي الأبدية، حتى أننا فكرنا (آماليا وأنا) بشراء شقة صغيرة وإنجاب طفل في السنة القادمة.

بعد مرور عام على إقامتي في برشلونة حصلت على إجازة لأسبوع وأخبرت آماليا أن علي السفر لمدريد لإنهاء بعض الأوراق المتعلقة، وكان القرار أن أمضي ثلاثة أيام لأعود بعدها كي نتزوج ونسافر إلى مدينة ساحلية للاسترخاء. في اليوم التالي حملت حقيبتي الصغيرة ومضيت حتى المطار كي أستقل الطائرة الذي

ستحملني في ظرف ساعة واحدة حتى العاصمة مدريد. هناك أمضيت اليومين الأولين في الركض وراء تجديد مستمسكاتي القانونية والوقت المتبقي قبل عودتي مررت فيه للسلام على بعض المعارف في المدينة كما أكلت في مطعم في حي المهاجرين أكلة عربية دسمة لم أتذوق مثلها منذ زمن. لم اكترث بالمرة بالتجوال في المدينة التي عشت فيها أغلب سنوات حياتي، لم ينهشني الفضول ولا الرغبة بمطالعة ما تركت منذ سنة. في صباح اليوم الثالث كنت من جديد في صالة المطار، وصلت قبل ساعتين من موعد الإقلاع، فكان أن شحنت حقيبتي وجلست أنتظر مرور الوقت حتى النداء الأخير.

هل هناك ما يمكن أن نسميه وخزة في القلب لتنتقل بشكل سريع حتى الرأس في ظرف دقائق؟ هل هناك هزة ولو خفية تنقلك من شخص ينتظر إقلاع طائرته إلى شخص لا يهتم بأي نداء؟ لا أعرف... ما أعرفه أنني قد بقيت واجماً، راكزاً كصخرة في مقعدي في صالة الانتظار لا أمل لي في كل هذه المتاهة المطارية غير التمعن بالوجوه القادمة والمغادرة والتي يمتلئ بها المطار. كنت شديد الانتباه لكل حركة وصوت يبدر في المطار إلا صوتي الداخلي وحركتي الجافلة، فقد كانا في عالمهما الذي لا أميز فيه مخرجاً ولا تعبيراً معيناً يدلني عما جرى لي. لم أتحرك رغم النداء الأخير لطائرتي ولم أفكر بشيء. أغمضت عيني ورحت أدندن بكلمات أغنية قديمة، لا أتذكر متى سمعتها، غير أنها نبضت في رأسي بشكل مباغت وراحت تملي عليّ كلماتها:" إيه أيها الغريب، أيها الغريب، أيها الغريب، لن تجد راحة لقدميك... إيه أيها الغريب!".

بعد أن عجزوا عن إيجادي والنداءات الأخيرة بإسمي ماتزال تطن في أذني بعد ورأيت بوضوح أن طائرتي قد غادرت المطار، نهضت من مقعدي وخرجت حتى أقرب محطة واستقليت تاكسياً أشرت عليه أن ينقلني إلى فندق بسيط وسط المدينة. لم يكن لي بيت أعود له في هذه المدينة التي تركتها منذ عام والتي أرقبها

من جديد كغريب يدخل أزقتها بحذر، لذا فكرت أن أنام اليوم في فندق على أن أفكر فيما بعد بما عليّ أن أقوم به. ما أن وصلت الفندق وقد كان الوقت ظهراً حتى نمت بعمق في السرير دون أن أفكر بساعة معينة للاستيقاظ.

استيقظت فجراً ولا رغبة لي للعودة إلى السرير. تفحصت بنطلوني الملقى على كرسي في الغرفة وعثرت على سكائري، حملتها مع هاتفي النقال حتى شرفة الغرفة وجلست فيها على كرسي قديم من الخشب ورحت أدخن مراقباً الساحة المقابلة. كان هناك حشد من الشباب اللاتينيين يدخنون الماريجوانا ويتصارخون فيما بينهم، بينما راحت شابة منفوشة الشعر في نوم عميق على سرير من الكارتون عند زاوية ترابية في الساحة نفسها. تنبهت لهاتفي ولمحت أكثر من عشر مكالمات ضائعة، كما هناك إشارة لرسالة مكتوبة وأخرى صوتية. كل المكالمات كانت من رقم واحد، عرفته للتو، رقم هاتف آماليا التي كانت تنتظر عودتي على طائرة الصباح. لم أحفل بمعرفة فحوى الرسالتين. تركت الهاتف جانباً ورحت أدخن متأملاً مصباح ضوء الشارع الذي يسلط أنواره على رأسي تماماً.

للحظة ما التفت إلى حيث تركت الهاتف، فتحته، أخرجت بطاقته ورميت بها حتى الفراغ الذي حملها إلى ساحة الشباب اللاتينيين. لم ينتبه لها أحد بينما كنت أتابع تحليقها وسقوطها لتندثر مع التراب. راقبت الهاتف قليلاً، ثم حملته ورميت به هو الآخر، هناك سمعت صوت ارتطامه على الإسفلت. شعرت بارتياح تام، وكأنني تخلصت للتو من تركة ثقيلة تخنقني بتكورها. قلت لنفسي "الآن أفضل من أي يوم" ولم أفهم حقيقة معنى ما أقول وكأن الجملة ليست لي وإنما ندت عن شخص آخر بجواري.

لم أهتم لكل ذلك. دخنت سيكاراً آخر وتمددت في كرسي الشرفة متمعناً السماء الصافية. قبل أن أغفو للمرة الأخيرة، شعرت بأحدهم يرمي حجراً من الأسفل ليرتطم بشرفتي. لم أعر للأمر اهتماما، بعد لحظات عاودوا الكرة فأصاب

الحجر المصباح ليحطمه ويتركني في ظلمة دامسة ممدداً بلا حراك، في كرسي خشب قديم في فندق لا أذكر منه حتى أسمه.

حكاية بورخيس
التي لم تنشر في كتاب

عندما كنت ما أزال أحتفظ بعنوان بريدي ثابت وحياة مطمئنة نوعاً ما، وصلتني رسالة من جنيف، لم أكن أتوقعها أطلاقاً، ولم أفكر بهذه المدينة لأنني لا أعرف أحداً فيها، ولكن المفاجأة أن وصلت بريدي ومعنونة بإسمي. لم أعثر على عنوان مرسلها ولم أستدل عليه حتى فتحت الرسالة ووصلت لتوقيع مرسلها الذي جاء بالشكل التالي (خ. ل. بورخس)، بعد عبارة تمنياتي القلبية التقليدية التي ننهي بها الرسائل عادة.

إدركت، وهو ما لم أصدقه يوماً ما، أن المرسل هو بورخس، كاتبي الأرجنتيني المفضل وصاحب أجمل كتاب قصصي هو كتاب الرمل، الذي أحفظ قصصه عن ظهر قلب. من تاريخ كتابة الرسالة، عرفت أنه أرسلها قبل أسبوعين من وفاته. بالطبع لم أر رسالة سابقة لبورخس حتى أعرف إن كانت منه حقيقة أم مقلباً من شخص يعرف تعلقي بعوالم بورخس، ومع ذلك لم أكن على يقين تام بأنه قد كتب الرسالة، فعماه يمنعه، لهذا تصورت أنه أملاها على سكرتيرته وزوجته ماريا كوداما نفسها التي تخيلتها مرة في قصيدتي تلك التي عنونتها (فندق بورخس) في كتابي (ليس سوى ريح)، عند زاوية شارع في مقهى وسط لشبونة وهي تطوح بشعرها الفضي وتشير لي مصححة لي لقائي المتخيل مع بورخس: " لا شيء

الآن/ سيجيء بعد حين حتماً/ وقد يراك/ غير أنه لا يفقه البنايات ولا الجادات/ وأكثر من ذلك رقعة نحاس أعلى البناية، وتدل عليه".

يقول بورخس في رسالته الأخيرة تلك أنه يشكرني لمراسلته، وفي الوقت نفسه يعتذر على تأخره بالإجابة على رسالتي التي أرسلتها له منذ أكثر من سنتين، ولكنه يشير إلى أنه لم يكن يتوقع الشهرة في أعوامه الأخيرة ولم يسع لها، مثلما لم يسع لها ولو لمرة واحدة في حياته. فلم يكن يعرف ماذا يعمل أزاء آلاف الرسائل التي تصله وكأن الناس ظنت به أحد مشاهير المغنين، مع ذلك . يعترف . أنه كان يجيب عليها بتأن كلما سنحت له الفرصة ووقت ماريا كوداما التي مارست مهام الزوجة وكاتبة قلمه. حتى يصل للتالي في رسالته:

"عزيزي.. أنا ممتن لك لأنك تعرض علي ترجمة أعمالي القصصية كاملة للغة العربية، فهذا لطف كبير منك، يكفيني من الحياة أن يصل اليوم الذي أرى فيه قصصي تقفز من الإسبانية للعربية التي أعشقها وتعلمت منها القليل الذي ساعدني على قراءة المعلقات!. ولكني وإن كنت لن أصل لرؤيتها مترجمة، فيمكنني الأستدلال عليها الآن، من متاهتي الضبابية التي أجوس دروبها منذ سنين، أتلمسها متخيلاً أشكالها الغريبة، حروفها النافرة وألفاظها المضخمة كعمامة عربي ملتفة طياتها الواحدة فوق الأخرى حتى لا نهاية.. يا ليتني أصل لتمعنها!

لا أعرف متى تنتهي من ترجمة القصص ونشرها، قطعاً لن أكون في هذا العالم، ولكن حتماً ستصلني أخبارها في عالمي الجديد، هذا على أمل أن تنتظرني حياة طويلة ثانية وثالثة، إذ لا أرغب حقاً بأنهار من عسل ولا حور عين في الجنة القادمة، ما أتخيله كما يعرف الجميع، مكتبة ضخمة بمتناول يدي، أسحب منها أي كتاب دون عائق.

ما أريده منك هو أن تضيف هذه القصة التي أسردها عليك في نهاية الرسالة، ولتكن قصتي الأخيرة. بالطبع سيشكك بها الكثيرون، ولكن من سيهتم بما

يقوله الآخرون، فهي على أية حال ليست لي، ولكن من الممكن أن تقول على لساني أنني صاحبها (ألم أفعلها في أكثر من موقع؟)، كنت قد قرأتها في مخطوط قديم، لا بد أن يكون بالعربية، أو منقولاً عن مُؤلف عربي، للأسف لا أستطيع مساعدتك بالعثور على الأصل، فلست بإدراك تام أين قرأتها، في كاتدرائية الأسكوريال أم في رف من رفوف مكتبة بوينس آيرس التي عملت فيها ولم أتركها حتى فقدت بصري. لا بد أن المخطوط قد ضاع هو الآخر، مثل العديد من المخطوطات الأخرى، مثل الأمال العظيمة التي لن تصل عتبة ختامها بسلام.

في القراءة الأولى ترجمت النص كلمة كلمة حتى توصلت لفك حروفه حرفاً حرفاً، ولا بد أنني هنا أزيد عليه وأنقص منه، فلم تعد ذاكرتي تساعدني كثيراً، ولكني متأكد أنها جرت في بغداد وصاحبها من زمرة مؤلفي ألف ليلة وليلة أو حفيد لهم. يسعدني أن أبعثه لك كي تعيده للعربية من جديد.

امنياتي وتحياتي القلبية ... ...

(توقيع: خ.ل. بورخس)

حكاية بورخس

المضافة لقصصه الكاملة

يحكى، والعهدة على القائل، أنه عاش ببغداد، في جانب الرصافة من نهر دجلة، رجل أختلف أهل المدينة فيه، فمنهم من وصفه بالدرويش أو البهلول ومنهم من عده أحمق، ولكنهم لم يختلفوا كثيراً بوصفه بالغريب الأطوار. مرات كانوا يوقفونه في وسط الجادة وينهالون عليه بالأسئلة التي يجيب عليها بتمهل وثقة

يحسده عليها حكماء البلد. أحياناً أخرى يتجاهلونه بعد أن ملوا رؤيته بأسماله، شعره المجعد ولحيته التي تصل ركبتيه. لم يروه بصورة أخرى غير صورته المعتادة، يمضي ساهماً في طريقه الذي يقطعه عشرات المرات بين طرفي الرصافة حتى النهر، متأبطاً صندوقاً خشبياً مدهوناً باللون الأسود، لا يتركه من يديه أطلاقاً. حاولوا مرات عديدة مغافلته وسرقته، لكنه كان مهملاً في كل شيء غير هذا. فمن يراه يسير متأبطاً الصندوق، يظن به أحد أطرافه، فلم يضعه أرضاً لمرة ولا حتى في منامه.

من تقرب منه وسأله عن الصندوق، لم يخرج منه إلا بإجابة واحدة حفظها أهل المدينة عن ظهر قلب:

– هذا صندوق العالم، عبره أستطيع رؤية ما يجري في كل مكان.

وعندما كانوا يسألونه لماذا لا يدعهم يرون العالم مثله، كان يضحك ويجيب:

– هذا لي ولم يصنع لكم، فابحثوا بأنفسكم عن صندوقكم.

لكنهم في مراقبتهم له، رأوه يغيب لأيام، ولا أثر له ولا لصندوقه.

غير أنه كان يعود في كل مرة، كما هو، أكثر تيهاً وارتباكاً مما كان عليه في السابق.

البهلول مع كل عودة كان يقف وسط المدينة ويقول قولاً جديداً:

في المرة الأولى قال: لن تجد راحة لو كنت أنا أنت وأنت أنا.

في المرة الثانية: ما هو العاقل؟ الذي لا يفرح في امتلاك أشياء هذا العالم.

– ما هو العالم؟ غربة لمن جربه.

– ما يشبه العالم؟ أحقر من أن يقارن بشيء، لأن كل ما بعده هو أحسن منه.

– نحن لا نعلمكم الشيء الذي لا تعرفونه، لكننا نذكركم بالشيء الذي تعرفونه حق المعرفة.

– أين ممتلكاتك؟ ولا أشير لما بين يدي.

أحاديث البهلول وصندوقه لم تمر عبثاً عند والي المدينة، فأمر بأن يحضر أمامه. ولما أعيت حرسه محاولة القبض عليه، فقد خصص جائزة لمن يجده قيمتها عشرة أكياس من الدنانير الذهبية.

لكنهم لم يفلحوا بكل محاولاتهم، فما أن ينقضوا عليه، حتى يكون قد دخل الصندوق، ويخرج لهم من جهة أخرى بعيدة عن متناول أيديهم. وهكذا بلا عد. في كل مرة كانوا يرونه بحال أخرى، ملابس جديدة، وعمر آخر. أمام أنظارهم، رأوه عجوزاً ليعود بعد أيام بحلة صبي، وقبل أن يستيقظوا من هول المفاجأة حتى يكون قد ألقى عليهم مشورة جديدة من أقواله التي قيل إن أحدهم قد جمعها في مخطوط، لم يسلم هو الآخر، وحرق أو ألقي من ضمن الآف الكتب التي ألقيت في نهر دجلة بعد سنين، أيام غزو المغول.

لما رأى الملك أن لا حيلة للقبض عليه، أمر جيشه ترك حدود الإمبراطورية والزحف لبغداد، حتى يساعدوه بالقبض على البهلول، الذي جعل منه العدو رقم واحد في كل البلاد.

بعد أكثر من شهرين وبضعة أيام من الملاحقة والترصد، قبض افراد الجيش بمساعدة الشرطة وأهالي المدينة على صاحب الصندوق، إذ كان غافياً عند ضفة النهر. يقول أحد المؤرخين أن جحافل الملاحقين أصطادوه بشباك من حبال غليظة " كما يصاد النمر الجريح" ولم يستطع تلك المرة الوصول للدخول في فتحة الصندوق.

كان القبض على البهلول، غافياً عند ضفة النهر، بمثابة احتفال شعبي دام سبعة أيام.

في اليوم الثامن، ساقوه من سجنه حتى قصر الوالي. أمام الوالي لم ينطق بكلمة، ولم يلتفت لتساؤلاته، مما جر عليه غضب الوالي، فكان أن أمر بصلبه في الساحة العامة. لم يكن الصلب شائعاً بعد في بغداد، وتلك كانت المرة الأولى، ليكون عبرة لمن لا ينفذ قرارات الوالي.

ما أن رفعوا البهلول على خشبة صلبه حتى قال جملته الأخيرة:

– كيف أرى وجهي؟ أن أيام فرحكم ستنتهي وايام حزني على وشك الإنتهاء.

وتوسد خشبته، فرأوه للمرة الأخيرة كما عهدوه دائماً، ثم اختفى.

يقول أهالي المدينة، أن الصندوق لا يزال في عهدة الوالي حتى جزع من معرفة أسراره. فطلب من منجمي المدينة، حواتها، نجاريها وعيونها محاولة أكتشاف لغز الصندوق. قبل أن يعلن الجميع فشلهم، كانوا قد فككوا الصندوق قطعاً صغيرة، ولما شاؤوا أن يعيدوه لوضعه الأول، لم ينجحوا أبداً. كانت كل قطعة من الصندوق، بدت لهم كأي قطعة خشب عادية، ولم يروا فيها أي سر أو مهارة.

لكنهم تعجبوا تماماً عندما راقبوا خشب الصندوق المفكك يرتفع بقدرة قادر أو أصبح جناً.

راقبوه متوسداً سماء المدينة، يدل أهاليها على ما لم يروه أبداً، لكنهم لم يستطيعوا الوصول للمسه أو الدخول في عالم فرجته.

كل شهر تنقص سماء بغداد قطعة من الصندوق، دون أن يلمحوا تبدلاً. حتى أختفت الخشبات كلها. عند ذلك رأوا ما لم يروه في حياتهم. تفتق النهر، دجلة، وتمدد مخرجاً من أحشائه أراضي جديدة عند ضفته الأخرى، التي لم تعرف له ضفة بعد، حتى لمحوا بعد أشهر بيوتاً تبنى، بنايات ترتفع، وأناساً تأويها. فصاح الجميع بلفظ لم يعرف له معنى قبل ذلك: هي الكرخ.

منذ ذلك الحين، وبغداد يشقها دجلة إلى نصفين، نصف رصافته، ونصف كرخه الذي رأوه ينبني خشبة بعد أخرى من صندوق البهلول المصلوب.

يقول الراوي أن القصص لا تنتهي ما أن نصل النهاية، القصص تكرر نفسها ما أن نقول: يحكى... فالجزم بأن الصندوق قد اختفى بهذه الطريقة، ليس سوى محض خيال.

بعد سنين، وفي حكم والي آخر، رأى أهالي بغداد، رجلاً مطرق الرأس يتهادى بمشيته، قاطعاً جسر الخشب الذي بناه البغداديون كي يوصل ما بين الرصافة والكرخ، وما أن يحل المساء حتى يتوقف ويلقي عليهم حكمة جديدة دون أن ينتظر رد فعلهم أو يلمح في وجوههم تغيراً ما و.. بالطبع لا ينسى للحظة صندوقه الأسود، قابضاً عليه بعزم ويحضنه بقوة لا فكاك منها.

كتاب بأوراق ممزقة

لم أقرأ كتاباً منذ فترة طويلة بسبب تعب بصري خاصة عيني اليمنى التي باتت تنغلق وتنفتح بإرادتها (أو الأصح بإرادة العصب)، ومع ذلك فلا فائدة من انغلاقها وانفتاحها طالما قد بدأت تفقد حساسيتها في الرؤية مما جعلني أهملها نهائياً وأعتمد اعتماداً كلياً على حسنة العين اليسرى. من هنا تركت الكتب ومتعة القراءة منذ وقت بعيد وبدأت أبتعد عن المكتبات ومعارض الكتب حتى لا تعاودني دودة النهش التي تدفعني لشراء كتاب وبالتالي قراءته، مما يعنيه التنبؤ بفقدان العين الأخرى.

ولكن المصادفات المعدودة في حياتنا دائماً ما تواجهنا دون حساب.

كنت قبل أيام في محطة القطار الرئيسية، وسط مدريد، جالساً على مسطبة خشبية في صالة انتظار المسافرين متأملاً الوجوه وتضييعاً للوقت حتى موعد القطار القادم الذي لن يصل قبل ساعة واحدة. كانت تصلني من خلفي موسيقى آلة تشيلو مضخمة، معزوفة لشوبان متأنية ومؤثرة بإيقاعها الذي يشبه مسح الكتف بأصابع خشنة لوقت لا نهائي وبرقة عصية على الوصف. التفت لأرى مصدرها، ذلك أنها ذكرتني بأول مرة سمعت فيه هذه المعزوفة. كان ذلك في شتاء شباطي قارس في بغداد (لازمة قصصية تقليدية لا بد منها ها هنا)، تاركاً القائد يكرر واحداً من خطاباته الطويلة في التلفزيون، فصعدت إلى الطابق العلوي وشرعت بالقراءة منطرحاً على كرسي خشبي، حينذاك وصلتني أنغام شوبان من جهة لم

أدركها. فتحت الشباك وتنصت طويلاً لمعرفة جهة انبعاث الموسيقى بلا طائل. ولأن العزف كان يصلني بشكل أوضح بإبقاء النافذة مفتوحة، فتركتها مشرعة متحملاً البرد والمزنه الخفيفة التي تغسل الوجه مع حركة الريح. قربت كرسياً من النافذة وأغمضت عيني، فاحتلت موسيقى التشيلو فضاء الغرفة.

قد تقول إنها بداية سيئة لحكاية قصيرة، تتحدث فيها عن فقد بصر ومن ثم انجذابك للبحث عن مصدر موسيقى شوبان وتذكرك وسط هذه المعمعة أحد شباطات بغداد (ولماذا على بغداد أن تحضر دائماً متضمخة برعشة شتوية وذكرى مدهشة؟) بما لا يتوافق وشروط الحكاية الواقعية التي تتشبث كامرأة وفية بعروة النص المتماسك من أوله لآخره دون زيادة حرف واحد.

أقول لك، إنني في الواقع لم يكن بإمكاني الحديث عن (كتاب بأوراق ممزقة) ولا عن بسطة كتب قديمة لو لم أكن في محطة قطار واستمع فجأة لموسيقى شوبان، ثم لولا بؤس المواصلات ووصولها المتأخر لما كان لي وقت الاقتراب من صاحب الكتب القديمة وتمسيد يدي على كتاب بعينه. كتاب واحد لا غير.

في تلك اللحظة من اندماجي مع الموسيقى أو الأصح مع ذكرى الموسيقى في لحظة إغماض عين سليمة لأن الأخرى منغلقة بإرادتها... آنذاك فحسب انتبهت لبسطة كتب قديمة وسط محطة القطار، ما أن التفت من جهة كتفي الأيسر.

على ما أتذكر لم أتحرك بإرادتي، فقد كنت مصمماً على عدم الاقتراب من حيز يضم كتباً، ولكن بما يشبه عملية نهش وغليان متصاعد اجتاحني من باطن قدمي حتى صعد إلى الرأس وحركني من مسطبة الخشب وقادني كدليل أعمى مثل حالي وجاء بي قرب رجل يأكل سندويشة لحم بارد ويكرع من علبة كوكا كولا غير مهتم بمن يقترب أو من يمر بالقرب من بسطة كتبه. توقفت أمام البسطة وكأنني

مبتدئ لا يعرف كيفية تصفح كتاب ولا الفرق بين مجلد وآخر، ومن ثم لم أجرؤ على مس أي كتاب.

عند ذلك وبما يشبه حركة مخرج سينمائي أشارت لصاحب البسطة أن يتصرف بسرعة ويدخل الكادر قبل أن أغادر وأعود لمكان انتظاري من جديد، فكان أن تحرك البائع تاركاً سندويشته وعلبة الكوكاكولا على كرسيه، حياني بابتسامة مقصودة وسألني أن كنت أبحث عن كتاب بعينه.

– الحقيقة إنني لا أعرف عما أبحث؟

– هذا أنت إذاً . قال البائع . أخيراً يأتي من يعترف بجهله، لا تقلق، فالبدايات محيرة دائماً، وليس عليك سوى تحريك إصبع الرغبة فتشير لأي واحد منها، قد يكون هو كتابك الذي تبغي فيسرك أو تفشل فلا ضرر لأنك ستعللها عند ذلك بغباء الكاتب وعدم نضجه.

ثم صمت متأملاً رد فعلي، كأنه يراجع جملته التي من الواضح أنه يحفظها عن ظهر قلب ويرددها بين حين وآخر. ولأنني كنت في حيرة أكبر بعد سماع كلماته، فكان أن بادرني بشرح خبراته مع الكتب، ثم أخبرني أنه في الواقع لم يقرأ أي كتاب بحياته، فعمله يقتصر على البيع والشراء، الشراء بثمن بخس ومحاولة بيعه بثمن أعلى، ومصدر رزقه يجعل منه تاجراً جريئاً بعرض بضاعته. وقبل أن أعاود فكرة الهروب من إمام البسطة مجدداً، وكأنه قد قرأ أفكاري، فبدأ بعرض بضاعته، وصف الكتب ومؤلفيها وعم تتحدث، بدءاً بحجوم الكتب وأوزانها، نوعية ورقها ورائحتها التي قد تعود لسنة أو لسنين بلا عد. ضحكت في سري بسبب من خلطته الغريبة بالحديث عن الكتب بمزيج متماسك من الحقيقة والزيف، بخيال منطلق وتشبيهات لا علاقة لها بالكتب أساساً، وكأنه كان يلتذ بقضم سندويشة، محاولاً وصف ما بداخل قطعتي الخبز من خضرة ولحم وطعم الخردل والزيت والملوحة.

أخيراً ابتسمت، لأنه بأوصافه المدهشة، كان قد أرجعني لشراهتي بمعرفة الكتب التي وصفها لي، اكتشفت إن أغلبها قد قرأته سابقاً، فلعنت الذاكرة التي ما أن ننقر قشرتها حتى تفضحنا بمعلوماتها المخزونة.

قلت له لكي أتهرب من الشراء: أغلب ما وصفته لي وما موجود في البسطة قرأته سابقاً، إذا كان لديك كتب أخرى يمكنني رؤيتها، فلن أزعجك بتساؤلاتي بعد ذلك.

لم يمهلني حتى رأيته يمسك بكتاب قديم، أخرجه من كيس نايلون جنب كيس السندويشات. غلاف الكتاب شبيه بورق أسمنت، ممسوح العنوان لكثرة الأيدي التي تداولته.

قال لي: هذا كتاب لا بد أنك لم تقرأه من قبل، بل من المستحيل أنك قرأته، وصلني هكذا، ولا أعتقد بوجود نسخة أخرى منه، لأنني اشتريته من مؤلف الكتاب نفسه بعد أن باع مكتبته بالكامل لفقدانه بصره في أواخر أيامه. يبدو أنه مقصور عليك. هاك! ثم وضعه بين يدي بما يشبه تسليم مفاتيح خزانة سرية.

كان الكتاب ممزقاً بالكامل، ابتداء من حواشيه، غلافه مزين بتخطيط بالحبر الصيني لرجل هائم بأحلامه كأنه على وشك الطيران في أية لحظة. عنوان الكتاب طويل، ويعلن محتواه بلا أدنى شك:

ذكريات الأيام الطويلة المجحفة لحياة رجل ضاقت عليه مدريد فهرب إلى فضاء آخر بلا سابق معرفة لمؤلفه نوداس إي لودبا. عدت للغلاف الأخير بحثاً عن معلومات عن الكاتب ولم أعثر على شيء من ذلك سوى جملة مبتورة ومشوهة بتوقيع الناشر، بالكاد استطعت قراءتها إذ تقول: ".. وهي لمؤلفها (...) الذي حاول رسم حياة طويلة كأنه لا يعنيه منها سوى ردود أفعالنا، لا الوقائع الحقيقية للمدينة ولا ناسها (... ... .). كشف لا مثيل له عن نقيصة الروح، مذكرات يضعها كاتبها أمام القارئ بتواضع فاضح".

الحقيقة أن التعبير الأسباني لـ (تواضع فاضح) قد يعني من جملة ما يعني (استغفال مكشوف . غفلة عارية، مخترقة، نازفة. الخ). أما (نقيصة الروح) فلم أجد لها سوى هذه الترجمة، لأنها تعبير عصي على الترجمة لدلالاته التصوفية التي تحتاج هنا لكتيب صغير وإحالات متعددة لمصادرها.

حاولت أن أدرك مغزى رد فعل بائع بسطة الكتب وهو يمدني بهذا الكتاب، لكنني وجدته يعود لقضم سندويشته وكأن الأمر لم يعد يعنيه، بينما كانت عيناه تسبحان ببحر من الامتنان والتلذذ، إن لم أقل التحرر من تركة ثقيلة.

قلبت الغلاف لتصفح محتوى أوراقه فوجدتها ممزقة هي الأخرى تقريباً، بل تم قص ما يقرب من ثلث الكتاب، حافظ وحسب على عشر صفحات من القطع الصغير متآكلة الحواف ومشوهة الكلمات، لا تقرأ إلا بصعوبة تامة، وهي الصفحات الأخيرة منها، وترقيمها ينتهي بالرقم 120 دون فهرست يختم الكتاب، أو على ما يبدو أن الفهرست جاء في الصفحات الأولى المفقودة من الكتاب. على امتداد الصفحات العشر، بعضها ملتصق ببعض بسبب رطوبة التخزين أو سقوط سائل صمغي عليها أو من أثر أطعمة سكرية، فكرت بالعسل أو المربى وهو ما حدث معي في ظروف أخرى. على أطراف الصفحات التي استطعت فتحها هناك ملاحظات بقلم الرصاص، شخبطات، توضيحات، هوامش، تساؤلات واستفسارات أغلبها ليس بذي أهمية، جمل مبتورة للتذكر محصورة بقوسين، رسومات تزيينية، عناوين بحروف غريبة، أبيات شعرية منقولة من دواوين مذيلة بأسماء شعرائها وأخرى تعود لقارئ مثلي أو المؤلف نفسه. علامات استفهام وأسهم إشارة لم أفهم منها شيئاً سوى التأكيد على أن مؤلف الكتاب أجنبي أقام في مدريد لسنين طوال والصفحات عصارة ذكرياته الشخصية.

الصفحتان الأخيرتان، وهما الوحيدتان اللتان من الممكن قراءة ما جاء فيهما، كانتا واضحتين، بل أن نقش حروفها المطبعية كان محفوراً بتأكيد لا مجال لمحوها

أو التلاعب بها، كما أن الصفحتين جاءتا بلا أية ملاحظة أو هامش أو رسم توضيحي. في الصفحة الأولى منها عنوان بحرف كبير وسط الصفحة هو (نقطة الختام) أما ما يليها فيذكر نوداس إي لودبا:

"في يوم من أيامي الطويلة في المدينة، وبدون تخطيط مسبق، دخلت مكتبة لبيع الكتب القديمة. اثناء تجوالي فيها لمدة نصف ساعة، لفت انتباهي كتيب صغير بصفحات لا تتجاوز الـ 120 لمؤلف لم أسمع عنه من قبل ولم أقرأ له، وكتابه عبارة عن ذكريات أيامه المجحفة في مدريد. ولكن الكتاب بنسخته الوحيدة، كان بأوراق جافة صفراء ملتصقة ببعضها البعض مما يصعب فتحها وقراءة محتواها، سوى من صفحتين أخيرتين إحداهما فارغة إلا من جملة (فصل ختام) كعنوان وفي الصفحة المتبقية جاء ما يلي: كنت طوال أقامتي في المدينة قد ظننت أنني قد تركت أرثي الشخصي بثبات لا مجال للشك فيه كشجرة سرو معمرة من تلك التي تحكي عنها الأساطير، وأنني قد صنعت لي تاريخاً ووقائع، أناساً أعرفهم ومعالم أتميز بها، بما يمكنني بها ملء مجلدات كاملة. ولكنني وأنا أصل الصفحة الأخيرة من كتاب مذكراتي الشخصية أكتشف للمرة الأولى (ويا للغفلة!) أننا لا نأخذ من حياتنا. التي نظن بأهميتها وامتلائها. حتى الموت سوى صفحتين صغيرتين بحجم ورقتي كتاب، إحداهما لتوثيق عنوانك والأخرى للاعتذار عن هذا الهذر المتطاول. وهي حصتنا كلها . حصتي بالكامل من هذه الحياة المجحفة . وهي على أية حال تبدو كريمة معي، لأنها ستترك المجال للآخرين لملء الصفحات الفارغة، أو حواشيها، برسوم وتخطيطات ومنقولات وملاحظات وخطط مستقبلية. ربما لشخص آخر سيقدم بعد زمن ليتخذ منها مشروعاً لكتابة قصة لا تتجاوز الصفحتين هي الأخرى، عن كتاب بأوراق ممزقة لكاتب مجهول ظن أنه بذلك الفعل يترك ما يدل عليه أو يشير لمروره العابر".

عبدالهادي سعدون

كاتب عراقي ولد سنة 1968 في بغداد. مقيم في إسبانيا منذ عام 1993.
مختص بالأدب واللغة الإسبانية وترجم عنها أكثر من 20 كتاباً في الشعر والقصة والرواية والنقد.

من بين إصداراته الأدبية:

. ليس سوى ريح ، شعر، 2000.

. انتحالات عائلة قصص، 2002.

. عصفور الفم، شعر،2006.

. الكتابة بالمسمارية، شعر بالإسبانية، 2006.

. دائماً، شعر بالإسبانية، 2010. (جائزة أنطونيو ماتشادو العالمية للشعر)

. حقول الغريب، شعر بالإسبانية، 2011.

. مذكرات كلب عراقي، رواية، 2012.

. تُرجم العديد من نصوصه ونشر في كتب وأنطولوجيات ومجلات ودوريات مختلفة إلى اللغات التالية: الإسبانية، الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية، الفارسية، الكردية، التركية، الكتالانية، الغاليثية، الإيطالية، المقدونية، الصربية، الرومانية وغيرها.

ahsadoun@hotmail.com

قصص الكتاب

بلد متنقل 11

نصيحة وتنشتاين 17

حكاية الرجل الذي قص لي حكاية يعتقد أنها تهمني 27

مأتم عراقي 37

حكاية حقيقية 45

مكالمة هاتفية 51

التربية السيئة 63

حياة بديلة 67

حكاية بورخس التي لم تنشر في كتاب 73

كتاب بأوراق ممزقة 81

سنابل للكتاب

SANABEL
Editorial Hispano-Egipcia
www.sanabil.net
sanabooks@hotmail.com
5 شارع صبري أبو علم- باب اللوق- القاهرة
تليفون: 56 56 2393 20+

مكتب مدريد- اسبانيا
تليفون: **435 069 695 34+**